رحلة

في عالم الشيخ علي الطنطاوي

- رحمه الله -

سليمان بن صالح الخراشي



الطنطاوي
حياته وصفاته

الطنطاوي حياته وصفاته

قال الشيخ محمد المجذوب في ترجمته للشيخ الطنطاوي:
[لقد اشتهر باسم علي الطنطاوي، وهو في السجلات الرسمية محمد علي بن مصطفى الطنطاوي، نسبة إلى طنطا التي منها وفد جده لأبيه وعمُه، وقد عُرفا بأنهما من كبار علماء الشام، وقد ترجم لوالده صاحب كتاب (الحدائق الوردية) وعرَّف به الشيخان بهجة البيطار وجميل الشطي في كتابين لهما عن أعلام القرن الثالث عشر.

وكان جده لأبيه إمام طابور بالعسكر، أما والده فقد تولى أمانة الفتوى بالشام، كما تولى في بعض الفترات إدارة إحدى الثانويات الأهلية بدمشق، إلى جانب اهتمامه بعلوم الفلك والرياضيات.

وكان مولد الأستاذ في العام (١٣٢٧هـ) في بيت أبرزُ معالمه العنايةُ بالعلم وتوافُدُ طلبته عليه من كبار مشيخة دمشق.. وهو يحدث عن تلك البيئة فيقول: منذ وعيت على الدنيا وجدتني على صلة بالعلماء، وكان من عادة والدي أن يكلفني مناولته الكتاب الذي يحتاج إليه، وأراه يلقي دروسه على هؤلاء المشايخ، فأحضرها معهم سواء في البيت أو في جامع التوبة المجاور مع مواظبتي على دروس المدرسة..

وقد تلقى تعليمه النظامي في العديد من المدارس، خلال فترات من ثلاثة العهود: العثماني، ثم الشريفي، ثم الفرنسي، حتى استقر أخيرًا في مكتب عنبر الذي كان هو الثانوية الوحيدة بدمشق.. ولكن هذا الاستقرار لم يتوافر له إلا بعد كثير من المتاعب، اضطر معها إلى ترك الدراسة أكثر من مرة، حيث جرب حظه في التجارة وعمل في بعض المحال كاتبًا أو محاسبًا فأخطأه التوفيق، فأُعيد إلى طريق الدراسة حتى حصل على الثانوية.. ومن هناك اتجه إلى مصر ليلتحق بدار العلوم، وفيها تعرف الأديب الإسلامي سيد قطب ـ رحمه الله ـ، وتوثقت صلته بمجلة الرسالة التي أسهم في تغذيتها بالعديد من بواكير كتاباته..

على أن الشوق إلى مراتع صباه سرعان ما غلبه فعاد إلى دمشق قبل أن يتم عامه في دار العلوم، وعلى الرغم من سبق قبوله في كلية الحقوق لم يكتب له دخولها لفوات الوقت، فكان عليه أن يبحث عن عمل يشغل به فراغه بقية العام، فلم يلبث أن وجده في الصحافة، وبدأ ذلك في جريدة (فتى العرب) التي كان يصدرها الأديب المعروف الأستاذ معروف الأرنؤوط، وهي صحيفة يومية معنية بالأدب إلى جانب اهتمامها بالسياسة، وكذلك وجد عملاً صحفيًا آخر في تحرير (ألف باء) مع صاحبها الكاتب الفلسطيني الأستاذ يوسف العيسى، وقد هيأه ذلك للانضمام فيما بعد إلى أسرة التحرير في كبرى الجرائد الوطنية، التي أصدرتها الكتلة الوطنية باسم (الأيام) ومع ذلك لم يهمل رغبته في دراسة الحقوق، فما أن

حان موعد القبول للعام التالي حتى التحق بها، وطبيعي ألا تصرفه دراسة الحقوق عن أي شغل آخر، فجمع بين الدراسة والعمل. .

وللأستاذ في جريدة (الأيام) تجربة غنية، إذ جمعته بخليط من المحررين يمثلون مختلف الاتجاهات الفكرية والتيارات المذهبية، من الشيوعي إلى القومي إلى الإلحادي إلى الإسلامي ـ ممثلاً في شخصية الأستاذ ـ وكلهم مبعوثون لخدمة القضية في ظل الكتلة الوطنية! مما يعطي القاريء صورة عميقة الدلالة لنوعية المباديء التي كانت تمثلها تلك الكتلة، فلا يستغرب أن ينتهي عهد حكمها أخيرًا إلى كل الزلازل، التي أسلمت زمام البلاد إلى أعاصير الانقلابات.

وكان من الطبيعي أن يضيق المستعمر بحرية الكلمة التي تمثلها تلك الجريدة فتعطل عملها. ويعتقل رئيس تحريرها، الأستاذ عارف النكدي صاحب المميزات الرجولية العالية].

[ويقول الشيخ: لقد اتصلت بكثير من العلماء ولازمت الكثير منهم عملاً بأمر والدي، ومن هؤلاء الشيخ صالح التونسي، والد الأستاذ عبدالرحمن مدير مدارس الثغر في جدة، ولكنه لم يلبث أن هاجر من دمشق إلى المدينة، فلزمت الشيخ أبا الخير الميداني، الذي قرأت عليه من كتب النحو الشيخ خالدًا والأزهرية والقطر والشذور. . . إلى جانب الدروس العامة التي كنت أواظب على حضورها في الجامع الأموي، ويذكر من هؤلاء المؤثرين في ذهنيته الشيخ عبدالرحمن سلام البيروتي، فيقول: إنه أطلق من عرفت

لسانًا، خطيب متدفق، صاحب بيان، يرتجل الشعر، يسأل التلميذ عن اسمه فيسلكه في منظومة ليست كقصائد المتنبي أو شعر محمد المجذوب، غير أنه كلام مقبول من شأنه أن يطبع أثره في نفسي. وثاني هؤلاء المرحوم الشيخ عبدالقادر المبارك، الذي درَّسنا.. وكان درسه أكثر ما عرفت حيوية في حياتي. ثم سليم الجندي، والشيخ الداوودي، وكان رجلاً مسنًا يأتي المدرسة ـ مكتب عنبر ـ على حماره كشأن العلماء الأولين.. ثم يقف ليحدثنا في إسهاب عن أحد هؤلاء الذين تركوا بصماتهم عميقة في فكره وفي تاريخ حياته..

تصوفـــه:

يقول فضيلته: إنه نشأ أول أمره في وسط صوفي، إذ كان والده نقشبنديًا مثل أكثر المشايخ، فتعلم منه كره ابن تيمية والوهابية، حتى إذا شخص إلى مصر، وصحب خاله المرحوم الأستاذ محب الدين الخطيب، بدأ ينظر إلى ذلك الموضوع بروح جديدة دفعته إلى إعادة النظر في أمر القوم.. بيد أنه لم ينته إلى الاستقرار إلا بعد اتصاله بالشيخ بهجة البيطار، فمن هناك بدأت استقامتُه على الطريقة والتزام الجادة، وكان من أثر ذلك كتاباه اللذان أخرجهما عن حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب[1].. إلا أن هذا الاستقرار لم يأتِ بالمجّان بل كلّفه وأخاه عبدالغني ـ كما يقول ـ طويلاً من النقاش مع الشيخ بهجة، غفر الله لنا وله، فقد

---

(١) وعليهما ملاحظات ستأتي ضمن مباحث هذه الدراسة ـ إن شاء الله ـ.

دخلا معه في معركة جدال حادة، بلغت بهما حدَّ إغضابه، وهو المعروف بوقار العلم وسعة الصدر، والبُعد عن التعصب، حتى لم يعد لهما حجة يصح الاعتداد بها بعد أن اتضحت معالم الحق في أجلى بيان. .

أحداث عصره:

وللأحداث شخصيتها وفاعليتها في النفوس وبخاصة النفوس المميَّزة برهافة الحِس وبُعد الموهبة، ولم تكن هذه الأحداث قليلة العدد والأثر في ذات الشيخ علي، وإن تفاوتت في حجمها ومدى عمقها. . فهناك مشاهد الحرب العالمية الأولى من حيث انعكاساتها على محيطه، وأثرها في تفكيره، وهو يحدثنا عن بعض هذه المشاهد فيقول: إنه كان في السادسة من سنيه عندما أطبقت تلك الفاجعة على الناس، وقد رأى من مظاهرها ما لا يستطاع نسيانه، لقد كان الباعة يتنافسون في عرض الخبز مثلاً، فما إن انطلق نذير الحرب حتى غاب منظر الخبز عن الأعين، إلا من خلال طاقة صغيرة من كل فرن، وقد ازدحم عليها الناس بانتظار نوبتهم. ويقول: رأيت الناس ينبشون المزابل ليستخرجوا من ركامها ما يضعونه في أفواههم، ورأيت الرعب يملأ القلوب من اسم جمال باشا. .

وسرعان ما أيقظت هذه الصورة أشباهًا لها كانت نائمة في ذاكرتي فإذا أنا أشهد من وراء السنين أُناسًا يتسابقون للحصول على ما يستطيعون من جيفة حمار، وأسمع من صديق لي خبر ذلك

القروي الذي رآه بعينه ينهش يد أمه القروية وهي آخر ما بقي له منها.

ويتابع الأستاذ: لقد استمرت هذه المحن حتى إذا دخل الشريف فيصل بن الحسين دمشق تبدلت الحال، وقضينا سنتين كأنهما أعياد وأعراس، وكانت الأحياء تعبر عن فرحتها الغامرة بالتظاهرات الشعبية التي تتصاعد فيها الأهازيج، وتُردّد خلالها أنشودة تلك الأيام:

أيهـــا المـــولـــى العظيـــم   فخـــــر كـــــل العـــــرب

فتتجاوب بها كل الجموع من الجانبين.. ولكن شاء الله ألا تستمر هذه الفرحة طويلاً، فإذا الجيوش الفرنسية تقتحم دمشق بعد معركة ميسلون غير المتكافئة، وبذلك انتهى عهد الأهازيج والأفراح، ليبدأ عهد العسف الاستعماري الذي قوبل بالثورات والتظاهرات في كل مكان].

[يقول فضيلته: لقد كنا ـ طلبة عنبر ـ قبل تظاهرة شعبان في موقف المُشاهِد لحركة الأحداث، ثم تحولت المشاهدة إلى عمل، فتألفت لجنة عُليا لطلاب سورية.. وكانت سرية لا يُعْرف من أعضائها في الظاهر إلا الطنطاوي، لأني أنا الذي أعلو المنبر وأخاطب الناس، والحقيقة أن الذي كان يرسم الخطط ويحدد طرق العمل هو صبري القباني، بمساعدة مدحت البيطار، فهما المخططان وأنا المنفذ. وكان عليّ بوصفي رئيسًا للجنة الطلاب أن أُشارك في كل تحرك وطني، وكان منطلق العمل بل شرارته الأولى

أن نخاطب الناس عقيب الصلاة من على سدّة الجامع الأموي، ولم يكن ثمة مكبرات، فكنت أنادي الناس ذات اليمين وذات الشمال: إليَّ إليَّ عباد الله، فأُسْمِع المسجد كله.. ثم تكون التظاهرات والإضرابات... وقد كان لنشاط الطلاب هذا أثره الفعال حتى لقد استطاعوا تعطيل الانتخابات المزورة أيام صبحي بركات سنة إحدى وثلاثين، وذلك بالتعاون مع الكتلة الوطنية.. وكنت أنا الفاصل بين رجال الكتلة وحركة الطلاب فلا أدعهم يتصلون بهم أبدًا، على الرغم من محاولاتهم الدائبة، وبذلك ضبطنا مسيرة الطلاب وحفظناها من المؤثرات الخارجية.

رحلته في التعليم:

والعلم هو الركيزة الأساسية في آل الطنطاوي دون استثناء، وإذن لا مندوحة من محاورة الشيخ في جانبي حياته العلمية، ولقد حدثنا عن دراسته ومصادرها النظامية والمنزلية متعلمًا، فليحدثنا الآن عن رحلته خلالها معلّمًا..

والظاهر من حديثه المسجل أنه بدأ عمله في نطاق التعليم قبل استكمال دراسته، وكان الباعث على ذلك الوضع المادي الذي واجهته الأسرة عقيب وفاة والده، فقد فَقَدَ ذلك الوالد ولما يتجاوز الصف الثامن، وفجأة وجدوا أنفسهم تلقاء أثقال من الدين اضطرتهم إلى بيع الكثير من تركته، ثم أكرهتهم على مغادرة ذلك البيت المتواضع إلى آخر صغير بائس.. ويُفهم من بعض عباراته أنه بدأ عمله في التعليم الحكومي، ثم انتقل منه إلى المدرسة

التجارية مشاركة في مجهود جماعة النهضة (لمقاومة الاتجاه المحدث في التعليم النظامي) إلا أنه لم يلبث أن اختلف مع إدارة المدرسة عندما أرادوه على ترك جدوله في الصف الرابع ليتحول إلى الصف الثالث، فما كان منه إلا أن ترك التعليم غضبان ليعمل محاسبًا في أحد المحال التجارية، ثم رأى أن يعمل في التجارة مع أحد رفاقه غير أنهما سرعان ما انتهيا إلى الإفلاس].

[ويتابع فضيلته: وكادت السنة الدراسية أن تضيع عليَّ لولا أن جاء عمي الشيخ عبدالقادر الفلكي، واستعان بمحمد علي بك الجزائري فأعادوني إلى التجهيز ـ الثانوية ـ لأستدرك ما فاتني. وبعد ذلك استمر عملي في التعليم بالمدارس الأهلية مع المواظبة على الدراسة. ومن المدارس التي عملت بها (الأمينية) وكان مديرها ابن خالتي الشيخ شريف الخطيب، ثم عملت مع الشيخ عيد السفر جلاني لمدة سنتين أيام حكم الشريف فيصل، وكذلك عملت في المدرسة الكاملية للشيخ كامل القصاب، ومع أن اشتغالي بالتعليم كان باعثه طلب الرزق، فقد ظل مردودي منه قليلاً محدودًا.

وحتى الآن كاد يقتصر عمله التعليمي على هذه المدارس الأهلية حتى قيَّض الله فيما بعد أن يحصل على وظيفة معلم في مدارس الحكومة، وقد بدأ تعيينه في سلمية ـ من ضواحي حماه، عام ١٩٣١م ـ ثم وافاه الحظ بالنقل إلى دمشق.

ويقول الشيخ: لقد كنا ثلة من الأصدقاء، منهم جميل سلطان

وأنور العطار وسعيد الأفغاني وحلمي اللحام، وهم الذين عُرفوا بين كبار أدباء الشام، وقد احتواهم جميعًا التعليم الابتدائي بدمشق، وذلك غاية ما يتمناه كل منهم.. بيد أن وجود الأستاذ في ذلك السلك كان ـ على حد تعبيره ـ مزعجة للمدارس التي عمل فيها، إذ كان كثير المعارضة إلى درجة قضت بنقله ثمان عشرة مرة خلال فترة قصيرة، هي سجل خدماته، حتى لم يعهد هناك مدير ابتدائية يقبل أن يعمل عنده!

ثم جاءت فترة اتصل بعدها بالكلية العلمية، وهي مدرسة أهلية، فعمل فيها مدرسًا للأدب العربي في صف الشهادة الثانوية، وأثنائذٍ ألَّف كتابه عن بشار بن برد وطُبع باسمه وبلقب (مدرس الأدب العربي في الكلية الوطنية) ويصف الشيخ اليوم ذلك الكتاب بأنه سخيف لا يرضى عنه.

إلى العـــراق:

والآن نبدأ مع فضيلته شوطًا جديدًا في حلبة التعليم، وقد حدث هذا عام ١٩٣٦م يوم جاءه الشيخ بهجة الأثري يحسن له العمل في العراق، وتم الاتفاق بينهما للتدريس في الثانوية المركزية في بغداد.. بيد أن لم يلبث أن اصطدم مع أحد المفتشين المصريين هناك فكان ذلك سببًا في نقله إلى البصرة ثم حدث خلاف جديد أدّى به إلى الانسحاب من العراق، واتخذ سبيله إلى بيروت حيث عمل مدرسًا للأدب العربي في الكلية الشرعية التي صار اسمها (أزهر بيروت) ولكنه لم يستمر هناك غير سنة واحدة

١٩٣٧م.

وبعد هذه السنة اليتيمة استدعاه الأستاذ الأثري إلى بغداد كرة ثانية، فما لبث أن عاد ليستأنف دروسه في الثانوية المركزية، ويضيف إليها دروسًا أخرى في معهد العلوم الشرعية الذي يسمى (مدرسة الإمام الأعظم) وفي هذا المعهد وجد الكثير من الأنس بفضلاء الأساتذة، الذين كان منهم العلاَّمة المعروف الشيخ أمجد الزهاوي، ويعترف لهم بالكثير من الخير الذي أفاده منهم طوال العام.. غير أن الوضع العام سرعان ما تبدل إذ عصفت الفتنة القومية بالعراق أيام سامي شوكت، الذي عرف بنزعته المناوئة للفكرة الإسلامية وكانت فتنة ـ يقول الشيخ ـ أنه لم يثبت أمامها من الوسط التعليمي ـ ولعله يريد وسط المتعاقدين ـ سوى ثلاثة: أحمد مظهر العظمة ـ رحمه الله ـ، والأستاذ عبدالمنعم خلاف، وعلي الطنطاوي.. فكان من نتيجة هذا الثبات أن تقرر نقلهم إلى مناطق الأكراد الشمالية..

وينهي فضيلته هذه الفقرة بإعلامنا أنه عاد إلى دمشق بعد ذلك، ليعيَّنَ أستاذًا معاونًا في التجهيز الجديد، فحل بذلك محل أستاذه الشيخ عبدالقادر المبارك، ولكن حادثًا طارئًا تعرض له فأدى إلى نقله لدير الزور.

وكان عمله في مدينة الدير عقيب سقوط باريس تحت كابوس الألمان، حيث كان الفرح يملأ صدور (المسلمين) وبدؤا يتجرؤون على الفرنسيين في مختلف المناسبات، واتفق أن كان الشيخ على

أهبة العودة إلى دمشق لقضاء أيام الأجازة النصفية، ولكن شاء الله أن يؤخر سفره لحضور صلاة الجمعة، وهناك ألح عليه بعض أعيان الدير وعلمائها أن يلقي خطبتها.

يقول الشيخ: وصعدت المنبر وأنا مثل القنبلة المسدودة بقشة، وانطلقت بها خطبة فظيعة، وكان مما قلته للناس يومئذٍ: لا تخافوا الفرنسيين فإن نارهم لا تحرق ورصاصهم لا يدفع، ولو كان فيهم بقية من الخير لما وطئتهم نعال الألمان..

ولم يحتج المصلون لأكثر من هذه الإثارة، فإذا هم يتدفقون ـ عقب الصلاة ـ في تظاهرة هائلة هاجموا خلالها دار الحكومة، وحطموا كل ما أصابوا..

وطبيعي ألا تمر هذه الحادثة دون مردود، فقد سبقته أخبار الخطبة والتظاهرة إلى دمشق، وكانت النتيجة أن حيل بينه وبين العودة إلى الدير، وأُعطي أجازة مرضية. تركته في فراغ ثقيل لم يعتد مثله من قبل.. ولا ندري كم استغرق من الزمن، ولكنا نعلم من حديث الشريط أنه لم ينقطع عن التعليم إلا فترات محدودة، تولى بعدها تعليم البنات في ثانوية ابن خلدون لمدة سنتين، تركها بعدهما، ثم عاد إلى تعليم البنات كرة ثانية، ثم عمل في المعهد العربي الخاص الذي أنشأته الجماعة الإسلامية عقيب الاستقلال، ولما أُقيمت كلية الشريعة في جامعة دمشق تولى فيها تدريس فقه السيرة، ولم يتركها إلا بعد أن فتحت أبوابها لقبول الطالبات.

إلى القضـــاء:

وهنا نواجه فجوة جديدة في الرحلة التعليمية من حياة الشيخ، إذ شغل معظمها بأعمال القضاء الذي ساقه الله إليه على غير توقع منه ولا تطلع إليه، وقد استمر في ذلك السلك ما بين العامين ١٩٤١ و١٩٦٣.

ولنستمع الآن إلى قصة هذه الرحلة:

يقول الشيخ: ذات يوم وأنا في غمرة الحيرة، أنتظر موعد الحافلة أمام القصر العدلي بدمشق، وقع بصري على عمود يحمل ملصقًا قديمًا من الإعلانات، فدنوت أتلهى بقراءته فإذا هو إيذان بحاجة العدلية إلى قضاة شرعيين.. وللحال ألغيت فكرة الركوب ومضيت لتوي إلى رفيق المدرسة الأستاذ محمد الجيرودي وقلت له: أي محمد.. هناك مسابقة لاختيار قضاة لم يبق دون موعدها سوى يومين فقط، فأعطني الكتب المساعدة..

لقد كان تخرجي في الحقوق عام ١٩٣٢م وأمضيت فترة السنوات التسع بعد التخرج بعيدًا عن جو القضاء والحقوق تمامًا، ولذلك عمدت إلى حبس نفسي على المراجعة في البيت لأستعيد ما لابد منه، ووفق الله فانتظمت في سلك القضاء، ثم جاء التوفيق الآخر بالمداومة في المحكمة الشرعية عند الشيخ أنيس الملوحي الذي لقيت لديه كل عون، فقد أخذ بيدي وزودني بما نفعني في عهدي الجديد، من معاملة حصر الإرث إلى الوصية إلى الزواج، إلى الدعاوى الكبيرة.. ولولا هذا التوجيه الكريم لَعَرّضت نفسي إلى ضحك الناس. ومن ثم عُيِّنتُ في النبك].

[ويتابع الشيخ: ثم نقلت من النبك إلى دومه، ثم انتدبت إلى القاهرة مع الأستاذ نهاد القاسم، وداومنا هناك سنة بوزارة العدل في مهمة لوضع قانون الأحوال الشخصية.. وحين عدت من تلك الرحلة انتُدبت لمحكمة دمشق مدة ثلاثة أيام لم يكن لي خلالها عمل، سوى أن أجلس بجانب عزيز أفندي الخاني.

وعزيز أفندي هذا ذو هيئة ومهابة واستقامة ونزاهة ـ رحمه الله ـ، ولكنه ليس بقاضٍ، ومعلوماته كذلك.. والرجل الذي يسيّر المحكمة هو رئيس كتابها وكانت هذه المحكمة على غاية من السوء لا يستثنى من سيئاتها سوى قاضيين نزيهين والله هما الشيخ عادل علواني والشيخ صبحي الصباغ.. وكنت أرى بعيني الرشوات وأنواع الفساد.. ولما سافر ـ الأستاذ الصباغ ـ إلى الحج قسموا الأعمال فيما بينهم، وجعلوا لي الأعمال الإدارية، وعقيب وفاة عزيز أفندي الخاني تسلّم الشيخ عادل مكانه.. غير أنه لم يلبث أن لقي مصرعه، ومع أني لم أكن قد بلغت مرتبة القاضي الممتاز فقد أسندوا إليَّ عمله، إذ لم يكن هناك سواي..

وكانت فرصة لإجراء ما أراه مناسبًا لتصحيح الأوضاع.. وأول شيء قمت به أن أتيت محاسب العدلية.. وهو رجل مسن وقلت له: عندكم في وزارة العدل مناضد خشبية أرجو تسليمي إياها مع نجار سأدفع أجره.

وبعد لأي سلمني ما طلبت، وذهبت بهذه المناضد إلى القاعة الكبيرة.. وكان أمامنا ثلاثة أيام تعطيل، وهي كافية لإنفاذ ما

صممت عليه، وبدأنا العمل فرفعنا الأرائك من القاعة ونصبنا مكانها تلك المناضد ليجلس الموظفون وراءها، وأغلقت غرفهم الأولى بعد تفريغها من المكاتب.

لقد أحدثت في تلك الدائرة تنظيمات جديدة، لم أُسبق إلى مثلها، إذ حددت لكل موظف عمله، وعينت لكل معاملة وقتها.. ومثلاً على ذلك معاملة الزواج ينبغي أن تسلم صورها مصدقة لأصحاب العلاقة بعد ثمان وأربعين ساعة، وحصر الإرث بعد أربع وعشرين ساعة.. فلا تطويل ولا تأجيل. ثم نظمت أمور المراجعات على طريقة المعاملات المصرفية، وخصصت لها أرقامًا مزدوجة يحمل صاحب العلاقة أحدها، ويربط الرقم الثاني بالمعاملة، وقيدت ذلك بالدَّور، فلا يتقدم أمير على كناس. وكذلك فعلت بمأذوني العقود، الذين يُجْرونها في المنازل فينالون من الرسوم ما يزيد عن الحد المقرر، وكنت أبعث من قبلي من يراقبهم، وبذلك ضبطنا العمل في المحكمة ضبطًا عجيبًا.

أمصادفات أم...

هذه المصادفات العجيبة التي واجهتها في حياتي لم تنته بعد.. ومنها الحادثة التالية. لما انتقلنا إلى القصر العدلي كنا أول محكمة دَخَلَته، واحتلت منه الجانب القبلي كله تحت مكاتب الوزارة.

وذات يوم، وكان عندي مجلس عائلي ينظر في قضية تفريق، والحكمان فيها الشيخان ياسين عرفة وكامل العقاد، إذا بآذن

الوزارة يلقي بأوراق من الأعلى، ففتحت الباب وصحت أوبخه: مالك تلقي الأوراق هكذا؟. وحانت مني التفاته إلى إحدى هذه الورقات فإذا عليها اسمي فتركت المجلس ورحت أجمعها، ثم رتبتها على صفحة مصمغة حتى انتظمت، وإذا هي قرار بنقلي مستشارًا لمحكمة النقض، فكانت مفاجأة كأخواتها من المفاجآت السابقة.. فقلت للشيخين: لقد انتهى عملي هنا..

وقد سبق للأستاذ وجيه الاسطواني أن مهد لهذا الأمر إذ قال لي: لقد جاء دورك. أفتحب أن تبقى قاضيًا ممتازًا أم تحب أن تنتقل إلى محكمة النقض؟. وهكذا تم نقلي إلى التمييز سنة ١٩٥٣م وبقيت فيها عشر سنين جئت بعدها إلى المملكة العربية السعودية في تشرين ١٩٦٣م.

إلى المملكـة:

ويقول الشيخ: لقد بدأت عملي بالرياض مدرسًا في الكليات والمعاهد التي صارت إلى جامعة الإمام محمد بن سعود، وقد قضيت هناك السنة الأولى: وأصبت بالآم اقتضتني إجراء جراحة في دمشق، وشعرت بضيق نفسي يحول بيني وبين متابعة العمل في الرياض.. فلمّا دعاني المرحوم الشيخ عبداللطيف ومفتي المملكة الشيخ محمد بن إبراهيم، ـ رحمهما الله ـ، إلى تجديد العقد أبديت اعتذاري وقلت لهما: والله ما أشكو شيئًا سوى أني قد ضاق صدري وأشعر أني أكاد أختنق في الرياض[1]. وهكذا أنهيت

---

(١) لمـاذا؟!

العقد. وأثناء الإجازة الصيفية اتصل بي الشيخ بهجة البيطار من سفارة المملكة بدمشق، وأخبرني أنه ينتظرني عند السفير الشيخ عبدالعزيز بن زيد، فأدركت أنه سيكلمني بشأن العودة إلى المملكة. وفي باب السفارة دعوت الله بدعاء الاستخارة، وقلت: يا رب قد تركت الأمر إليك.

وهناك جعل الشيخ بهجة يحاورني محاولاً إقناعي باسم المفتي، فقلت: والله ما تركتهم عن قلى، ولا أنا عاتب ولا غاضب، لكن ضاق صدري في الرياض، فتناول السفير الكلام وقال: هل تذهب إلى مكة؟ فأجبت دون تردد: نعم. ولم ألبث أن حضرت إلى هنا، ولم أزل في هذه الشقة نفسها ـ في أجياد ـ حتى الآن][1].

قلت: انتهى حديث الشيخ محمد المجذوب عن الشيخ علي الطنطاوي، ولازال الطنطاوي يعيش في مكة بعد أن اعتزل جميع الالتزامات الإعلامية التي كان مرتبطًا بها بعد أن ساءت صحته كثيرًا، وبلغ من العمر ثلاثًا وتسعين سنة تقريبًا، شفاه الله.

مشائخه:

يقول الشيخ: [اتصلت بعدد لا أُحصيه الآن من العلماء. منهم من قرأت عليه، ومنهم من حضرت دروسه، ومنهم من جلست إليه واستفدت منه، في الشام ومصر والعراق.

---

(١) علماء ومفكرون عرفتهم (٣/ ١٨٩ ـ ٢٣١) بتصرف يسير.

من هؤلاء: الشيخ بدر الدين الحسني المحدث الأكبر، وقرينه السيد محمد بن جعفر الكَتَّاني صاحب «الرسالة المستطرفة»، والشيخان المعمِّران: الشيخ عبدالمحسن الأسطواني، والشيخ سليمان الجوخدار، ومفتي الشام الشيخ عطا الكسم، وخلفه المفتي الشيخ محمد شكري الأسطواني، وخلفه المفتي (الطبيب) الشيخ أبواليسر عابدين، والسيد محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر، والشيخ عبدالمجيد سليم شيخ الجامع الأزهر، والشيخ مصطفى عبدالرازق شيخ الجامع الأزهر، والشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر، وخالي محب الدين الخطيب، والشيخ أبوالخير الميداني، والشيخ صالح التونسي، والشيخ محمد بهجة البيطار، والشيخ توفيق الأيوبي، والشيخ أحمد النويلاني، والشيخ عبدالله العلمي، والشيخ هاشم الخطيب، والأستاذ سليم الجندي، والشيخ عبدالقادر المبارك، والأستاذ محمد كرد علي منشيء المجمع العلمي في دمشق، والشيخ المصنف الأديب الشيخ عبدالقادر المغربي، والأديب الراوية الأستاذ عز الدين التنوخي، والأستاذ معروف الأرناؤوط، والأستاذ شاكر الحنبلي، والأستاذ سعيد محاسن، والشيخ عبدالقادر بدران الحنبلي، والشيخ محمد الكافي المالكي، والشيخ نجيب كيوان الحنفي، والشيخ أمين سويد، والشيخ زين العابدين التونسي، والشيخ أمجد الزهاوي، والحاج حمدي الأعظمي العراقي، والشيخ قاسم القيسي، والشيخ زاهد الكوثري، والشيخ البشير الإبراهيمي الجزائري، والشيخ كامل القصاب، والشيخ عيد السفرجلاني.

وجوّدت القرآن على شيخ قراء الشام الشيخ محمد الحلواني، والشيخ عبدالرحيم دبس وزيت، وولده شيخنا (وتلميذ والدي) الفقيه الحنفي الشيخ عبدالوهاب، والشيخ عبدالله المنجد، وخلق غيرهم كثير.

أسأل الله لهم الرحمة والغفران، من ذكرت منهم هنا، ومن غاب الآن اسمه عن ذاكرتي، وأظن أني لو عددتهم لأربىٰ عددهم على المئة جزاهم الله خيرًا][1].

الشيخ الأديب:

يقول الشيخ الطنطاوي بأن للأدب نصيبًا كبيرًا في حياته لاسيما أيامه الأولى، فهو قد أضاع فيه شطرًا من حياته، وقرأ كثيرًا من كتبه ودواوينه، ولنستمع إلى اعترافه بذلك:

يقول الشيخ: [وكذلك كنت في دراستي وفي مطالعتي، أقرأ كل شيء، ولكن للأدب أكثر أيامي وجل اهتمامي، قرأت من كتب الأدب العربي القديم كل الذي وصلتْ إليه يدي، قلت لكم من قبل إنني سردت (الأغاني) سردًا وأنا في أوائل المدرسة المتوسطة. قرأته مرة وحدي، ومرة مع رفيق العمر سعيد الأفغاني الذي كان أبوه الرجل العابد الصالح من كشمير لا يكاد يحسن العربية، وصار هو اليوم المرجع في علوم العربية والحجة فيها، فهو الآن يدرس في جامعة الملك سعود، وما أعرف له في علمه بالنحو نظيرًا.

---

(١) تعريف عام بدين الإسلام، ص٥، ٦.

ثم قرأت من المجلدات وكنت أقتصر أبدًا على الأدب القديم ثم انتقلت إلى الجديد، بدأت بالمنفلوطي الذي كان الأستاذ لنا والقدوة الذي نقتدي به في الإنشاء، وإن لم ألقه ولم نعرفه، ثم للعقاد والمازني والرافعي والزيات وحسين هيكل وصادق عنبر، وقرأت أجمل صفحات الأدب الأخرى. أما الفرنسية فأخذتها من نبعتها وقرأتها بلغتها، يوم كنت أعرفها وكنت متمكنًا منها، وإن لم أكن من المتقدمين بين رفاقي بمعرفتها.

وأما الآداب الأخرى فقرأت ما ترجم إلى العربية منها، ومن أحسن ما أفادني ما ترجم للمنفلوطي فكتبه بقلمه، وإن خرج به عن أصله، وبعضه كقطعة تأبين فولتير لفيكتور هيجو تعتبر نموذجًا كاملاً للأسلوب الخطابي، لأن هيجو كان أسلوبه خطابيًا، وكان بارعًا فيه متقنًا له، وكذلك كان المنفلوطي. وأحسب أن فيكتور هيجو لو عرف العربية، وكتب هذه القطعة بها، لما جاء بأحسن مما جاء به المنفلوطي.

أما «العبرات» التي حاول المنفلوطي أن يجعل منها قصصًا، فلولا جمال أسلوبها ما كان لها في ميزان الأدب ثقل، ذلك لأن الأم التي ترتفع حرارة ولدها، وليس عندها أحد، فلا تدري ماذا تصنع له، فيتقطع قلبها شفقة عليه وحبًا له. وصف هذه الأم أصعب بمئة مرة مما ذهب إليه المنفلوطي، وهو أن يجعل الولد يموت فتموت من حزنها عليه الأم، ويأتي الأب فيفاجأ بالخبر فيصعق فيموت ويموت الجيران، ويموت أهل الحارة، ويكون وباءً

عامًا. هذا الذي تشتمل عليه «العبرات».

ومن أجود ما ترجم إلى العربية من آداب الأمم الأخرى رافائيل لامرتين وآلام فرتر التي ترجمها الزيّات، ثم روايات الجيب. روايات الجيب هذه إن طرحت منها حكايات أرسين لوبين، وجدت مجموعة من نفائس القصص والأدب العالمي «كالفندق الكبير» و«الأبيض والأسود» و«الحانة الزرقاء» وأمثالها.

فلما انصرفت إلى تدريس الأدب في العراق وفي بيروت غلب على كتابتي، لاسيما ما كتبته في «الرسالة» الأدب الخالص.

فلما فكرت في دخول القضاء وأعددت نفسي للمسابقة التي كانت مفروضة على طالبيه تركت الأدب وأهله، وجانبت كتبه، وعكفت عكوفًا كاملاً على كتب الفقه: الفقه المذهبي وغير المذهبي، في مثل كتاب «إعلام الموقعين» و«زاد المعاد» و«فتح الباري»، و«كتاب الشوكاني» و«سبل السلام» والكتب التي تبحث في علم الخلاف، وهو ما يسمى اليوم بالجامعات الفقه المقارن (ترجمة للكلمة الأجنبية).

هنا كان ابتعادي عن الأدب وانقطاعي عن الكتابة حتى لقد ظننت أني لن أعود إليه أبدًا][1].

قلت: فالشيخ قد بدأ أديبًا ثم فقيهًا، ولهذا فقد تأثرت كتاباته بذلك فطبعت بطابع الأدب، كما يعلم ذلك من اطلع على كتبه،

---

(١) ذكريات الطنطاوي (٥/ ١٢ ـ ١٤).

فجُلها عبارة عن قصص أو مقالات اجتماعية يصوغها صياغة أدبية جميلة تستهوي القراء، ولا تكاد تجد له كتابًا علميًا واحدًا سوى (تعريف عام بدين الإسلام) على ما فيه من ملاحظات كما سيأتي.

فالشيخ قد علقت نفسه بالأدب الذي أكثر منه عندما كانت نفسه خالية، فلم يعد يستطيع الإفلات منه في كتاباته، فلذا تصعب عليه الكتابات العلمية والفقهية مثلاً، التي تحتاج إلى دقةٍ في العبارة، وعمق في البحث، لا تطرب لها نفس الشيخ.

ويقول الشيخ عن شدة مطالعته للكتب:

[لقد قرأت قبل (مكتب عنبر) وفي سنواتي الأولى فيه كتبًا لا أكون مبالغًا، ولا مدعيًا مغرورًا، إن قلت إن في الأساتذة اليوم من لم يقرأها. ذلك أني كنت أمضي وقتي كله، إلا ساعات المدرسة، في الدار. لم أتخذ لي يومًا رفيقًا من لداتي، ولا صديقًا من أقراني، ولم أكن (بحكم تربيتي ووضع أسرتي) أعرف الطريق إلى شيء من اللهو الذي كان يلهو بمثله أمثالي، فلم يكن أمامي عمل أنفق فيه فضل وقتي، وأشغل به نفسي، إلا المطالعة][١].

ويقول: [أنا اقرأ كل يوم مهما أقللت ومهما كنت مشغولاً أكثر من مئتي صفحة].

ولكن للأسف هي كما قال الشيخ:

[أكثرها مما لا يفيد علمًا، ولا يُعلم أدبًا، ولا يُقوّم خُلُقًا،

---

(١) ذكريات الطنطاوي (١/١٥٩ ـ ١٦٠).

وأَدَع عشرات من الكتب الجدية النافعة][١].

ويقول أيضًا:

[قرأتُ من دواوين الشعراء عشرات وعشرات، ومن كتب الأدب أكثرها، ومن القصص الفرنسية والمترجمة عن الانجليزية والروسية ولغات الأرض كلها مئات، نعم مئات لا يزال أكثرها عندي][٢].

قلت: وبرغم اشتغال وانشغال الشيخ بالأدب، إلا أنه لا يعني به كل أدب، بل الأدب الجاد النافع، فلهذا نراه يحمل على دعاة الحداثة، وأدبهم الهدام.

يقول الشيخ:

[أنا رجل مشتغل بالأدب، وأنا من خمس وخمسين سنة أكتب وأنشر، ولي صفحات لا يستطيع أعدى الأعداء أن ينكر أنها من جيد الأدب، وأنا مع هذا أقول: لعنة الله على الأدب، وعلى الشعر، وعلى الفن، إذا كان لا يجيء إلا بذهاب الدين، وفقد الشرف، وضياع العفاف، وهتك الأعراض][٣].

ويقـــول:

[هل ترونني تفلسفت؟ وأغربت؟ وجئت بشيء لا يفهم كما يفعل أدعياء الشعر الجديد، أو شعر الحداثة، أي شعر الحَدَث

---

(١) مع الناس، ص٤٩.
(٢) ذكريات الطنطاوي (٤/ ٧٨).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٠٧).

الذي يستوجب الوضوء إن كان صغيرًا! والغُسل إن كان (حدثًا أكبر)! على أن من شعر الحداثة ما لا تذهب بأوضاره، ولا تطهر صاحبه منه، شلالات «نياغرا» لو وقف تحتها واغتسل بها!!][1].

كتب الشيخ:

يقول الشيخ: [ولقد ذكرت في مقدمة الطبعة السابقة أني أكتب من ستين سنة (من سنة ١٣٤٧هـ)، والمطبوع مما كتبتُ يزيد على ثلاثة عشر ألف صفحة، وأن لي أكثر من خمسين كتابًا ما بين رسالة صغيرة وكتاب كبير، وأني أحاضر في النوادي من سنة (١٣٤٥هـ)، وأتحدث في الإذاعات بلا انقطاع من يوم أُنشئت محطة الشرق الأدنى في يافا، قبل الحرب الثانية، وأن لديّ الآن أصول أحد عشر كتابًا لا تحتاج إلاّ إلى عمل قليل لتُقدَّم للمطبعة][2].

ويقـــول:

[عندماترون في كتب التراجم أن فلانًا من العلماء له مئة مصنف ومئتان وأكثر، تذكروا أنهم كانوا يعدّون الرسالة الصغيرة التي تكون في ورقات مع الكتاب الذي يبلغ ألفًا أو آلافًا من الصفحات، يجمعون ذلك كله في رقم واحد. فإن أنا قست ما صدر لي بهذا المقياس جاوزت مصنفاتي (جاوزت كثيرًا) المئة.. الكتب منها (التي تسمى كتبًا لا رسائل) أكثر من ثلاثين.

---

(١) المصدر السابق (٧/٢٨٦).

(٢) تعريف عام بدين الإسلام، ص١٠، ١١.

أول هذه المصنفات صدورًا (رسائل الإصلاح)][1].

ويقـــول:

[اقترح عليَّ أحد المحبين أن أنشر (المجموعة الكاملة) لكل ما كتبت. فقلت: هيهات لقد كتبت في جرائد ومجلات ما عندي منها نسخة واحدة، كتبت سنة ١٩٣٥م في جريدة (الجزيرة) عند الأستاذ تيسير ظبيان ـ رحمه الله ـ لما كانت تصدر في الشام ـ مقالات ما عندي منها شيء، وكتبت في (المكشوف) عند فؤاد حبيش مقالات ما عندي منها شيء، وفي (الثقافة) عند الأستاذ أحمد أمين، وفي مجلات وجرائد نسيت حتى أسماءها.

وقد طُبع لي إلى الآن ما يقارب الأربعين كتابًا، وأحسب أن الذي ضاع يملأ أربعين كتابًا آخر. أما أحاديثي في الإذاعة والرائي فإنها لو جمعت لجاءت في خمسين كتابًا ولكني لا أملك صورًا عنها وأكثرها ما كتبتها أصلاً.

وأسأل الله أن يكتب لي بعض الثواب عليها.][2].

قلت: وهذه قائمة بأسماء كتبه:

١ ـ ذكريات علي الطنطاوي (١ ـ ٨).

٢ ـ فهارس ذكريات علي الطنطاوي، إعداد: أحمد العلاونة.

٣ ـ فتاوى علي الطنطاوي.

٤ ـ تعريف عام بدين الإسلام، (طُبع أكثر من عشرين طبعة وبأكثر

---

(١) ذكريات الطنطاوي (٢/ ٣٥).

(٢) ذكريات الطنطاوي (٣/ ٢٤٠).

من لغة).

٥ ـ أبوبكر الصديق.

٦ ـ أخبار عمر وأخبار عبدالله بن عمر.

٧ ـ مـع النـــاس.

٨ ـ الجامع الأموي في دمشق.

٩ ـ رجال من التاريخ.

١٠ ـ قصص من التاريخ.

١١ ـ هتــاف المجــد.

١٢ ـ في سبيل الإصلاح.

١٣ ـ صــور وخواطــر.

١٤ ـ دمشق، (صور من جمالها... وعبر من نضالها).

١٥ ـ فكــر ومباحـــث.

١٦ ـ بغداد، (مشاهدات وذكريات).

١٧ ـ قصص من الحياة.

١٨ ـ من حديث النفس.

١٩ ـ فصـول إسـلامية.

٢٠ ـ مقالات في كلمات.

٢١ ـ في أندونيسيا، (صور من الشرق).

٢٢ ـ من نفحات الحرم.

٢٣ ـ صيد الخاطر للإمام ابن الجوزي، تحقيق الطنطاويين.

٢٤ ـ حكايات من التاريخ (١ ـ ٧).

١ ـ جابر عثرات الكرام.

٢ ـ المجرم ومدير الشرطة.
٣ ـ التاجر والقائد.
٤ ـ التاجر الخراساني.
٥ ـ قصة الأخوين.
٦ ـ وزارة بعنقود عنب.
٧ ـ ابن الوزيـر.

٢٥ ـ أعلام التاريخ (١ ـ ٥).
١ ـ عبدالرحمن بن عوف.
٢ ـ عبدالله بن المبارك.
٣ ـ القاضي شُريك.
٤ ـ الإمام النووي.
٥ ـ أحمد بن عرفان الشهيد.

٢٦ ـ قصة حياة عمر.
٢٧ ـ من شوارد الشواهد.
٢٨ ـ من غزل الفقهاء.
٢٩ ـ القضاء في الإسلام.
٣٠ ـ يا بنتي ويا ابني.
٣١ ـ ارحموا الشباب.
٣٢ ـ طريق الجنة وطريق النار.
٣٣ ـ صلاة ركعتين.
٣٤ ـ قصتنا مع اليهود.
٣٥ ـ طريق الدعوة إلى الإسلام.

٣٦ ـ موقفنا من الحضارة الغربية.
٣٧ ـ تعريف موجز بدين الإسلام.
٣٨ ـ المثل الأعلى للشباب المسلم.
٣٩ ـ محمد بن عبدالوهاب (١ ـ ٢).

وله مئات من البحوث والمقالات في عشرات من الصحف والمجلات.

إنكاره للمنكر:

للشيخ جهوده المشكورة في إنكار المنكر في بلاد (الشام)، فقد ذكر لنا في ذكرياته شيئًا من تلك المواقف الحسَنة التي وقفها في وجه أهل الباطل، من أنصار تحرير المرأة أو نحوهم، ممن كانت تعج بهم البلاد الإسلامية ذاك الزمان.

يقول الشيخ:

[وأنا من عادتي إذا سمعت بمنكر أو رأيته، أدخله ذهني كما تدخل المعلومات في المحساب (الكمبيوتر)، فأنام عنه كما أنام كل ليلة كأنَّ شيئًا لم يَلِج فكري، فإذا كان قبل موعد قيامي لصلاة الفجر، استيقظت من نومي فوجدت الفكرة قد ملأت نفسي، وغلبت على فكري، وتملكت أعصابي، فأتحمس لها، وأعد في ذهني ما أكتبه أو أقوله عنها، ويطير النوم من عيني فألبث متيقظًا أترقب طلوع النهار][1].

---

(١) ذكريات الطنطاوي (٥/ ١٠٥).

ويقول الشيخ عن إحدى النساء المتبرجات:

[ورأيت أن الكلام معها لا يفيد، فقمت فسلمت على المدير وانصرفت، ودمي كله يغلي في عروقي، وغضبي يضرب قحف رأسي. وذهبت فسألت من لقيت من الشبان في دار «الأخوة الإسلامية» فإذا هي سنة سيئة جديدة: أن يذهب مدرسون شبان إلى مدارس البنات، ومدرسات شابات إلى مدارس البنين، في أخطر مرحلة من العمر، مرحلة الدراسة المتوسطة، التي يكون فيها التلاميذ في بداية العهد بالبلوغ، نار الرغبة مشتعلة بين جوانحهم، وكوابح العقل والتجربة ضعيفة في نفوسهم، أما الدين فقد كان من أثر المستعمرين في أكثر بلاد المسلمين أنهم أضعفوه في نفوس الناشئين.

وروى لي هؤلاء الشبان حوادث مما يقع في المدارس التي تدرس فيها فتيات. حوادث مخيفة أخشى على أعصاب القراء من الشباب أن أذكرها، أو أن أُشير إليها، فأكون من الذين يريدون الفساد في الأرض.

نار وبنزين هل يكون من اجتماعهما نبع في ظل حوله ورد وياسمين؟

وذهبت فنشرت مقالة مشتعلة، لم أكتبها بقلم مقطوف من أغصان الجنة، بل بحطبة من جهنم، تلتهب كلماتها التهابًا، فتلهب نفوس أهل الإيمان وأهل الشرف، ومن في نفسه بقية من سلائق العروبة وخلائق الإسلام][1].

---

(١) المصدر السابق (٥/ ١٧٩).

ويقول:

[كنت أمنع النساء السافرات من دخول المحكمة، فوجدت يومًا في مقاعد المحامين امرأة سافرة مكشوفة الشعر، بادية النحر وأعالي الصدر. فقلت لها: أما يكفيك أنك خالفت الشرع فتكشفت، وأمر المحكمة ألا تدخلي فدخلت، ثم لم يسعك إلا أن قعدت في مقاعد المحامين؟ قالت: إنني محامية وأبرزت بطاقتها. فلما قرأت اسمها وجدت أنها شقيقة أحد أصدقائي القدماء، من الأدباء المعروفين، والوزراء الذين ولوا الوزارة مرات كثيرة، جاءت للوكالة عن أخت زميل قديم لنا، كنا معًا ندرس في مدرسة واحدة، فاختلف طريقانا، فسلك هو طريقًا غير طريقي، وأسس حزبًا كبر ونما حتى صار له الحكم في الشام وفي العراق][1].

ويقول في منكر آخر أنكره:

[اللهم لقد بلغت. اللهم لقد أنكرت المنكر. اللهم لا تنزل علينا لعنتك، ولا تحلل بنا غضبك][2].

رجوعه عن الخطأ سهل:

يقول الشيخ:

[قد قلت مئة مرة أن رجوعي عن الخطأ واعترافي به أهون عليَّ من شرب الماء][3].

---

(١) المصدر السابق (٧/ ١٠).
(٢) المصدر السابق (٥/ ٢٥٤).
(٣) فتاوى الطنطاوي، ص١٣١.

ويقــول:

[أقول لمن يستمع إليَّ من العلماء: إذا كنت مخطئًا فبينوا خطئي بالدليل، وأنا أُعلن الرجوع عنه][(١)].

اســتطراده:

مما اشتهر بين الناس عن الشيخ كثرة استطراده في أحاديثه، وهو يعترف بهذا الداء.

فيقــول:

[وسرت مع طلاب البصرة سيرتي مع طلاب بغداد، كنت أمحضهم النصح، وأُخلص معهم العمل، وأريد لهم الفائدة، وكنت لوفرة ما كان لديَّ يومئذٍ من معارف، أحرص على أن أنقل إليهم معارفي كلها، فعاد إليَّ دائي القديم، الذي لا يزال ملازمي إلى اليوم، في خطبي ودروسي، وأحاديثي في الإذاعة وفي الرائي، وهو الاستطراد. تُذَكِّرُني المسألة بأختها أو بابنة عمها، فأكره أن استأثر بها، وألاَّ أُشارك السامعين فيها، فينقطع مني الخيط الذي يربط حبات الموضوع، وأحيانًا أستطرد فينتهي الاستطراد، وأنسى الموضوع الأصلي. وهذا جد معي الآن بعدما كبرت، ولم يكن في الأيام التي أتكلم عنها في هذه الحلقة][(٢)].

---

(١) المصدر السابق، ص٢٤١.

(٢) ذكريات الطنطاوي (٤/ ٤٢، ٤٣).

دعاباتــــه:

تَميَّز الشيخ في كتاباته بكثير من الدعابة التي تظهر من خلال المواقف التي يتعرض لها، ثم يكتبها بطريقة مضحكة جذابة، فمن ذلك: قوله في ذكرياته:

[نهض الأمير ومشى إلينا يستقبلنا، وما فرغنا من السلام عليه، ومن أخذ مقاعدنا حتى قال بصوت منخفض: قهوة؟

وكنت قد لحظت (وأنا أدخل) الرجال أي الخويان (جمع خوي) واقفين في رحبة الدار، وعلى السلم، وأمام الغرفة وعلى بابها.

فما قال الأمير: (قهوة) حتى صاح الذي على الباب (قهوة)، فقال الذي في الدرج (قهوة)، وكرر الذي يليه (قهوة) حتى وصل الصوت إلى صانع القهوة ولست أدري أين كان.

سمعنا خمسًا وخمسين قهوة، قهوة، هوة، هوة، وه، وه..... تخرج متعاقبة متلاحقة، كأنها طلقات مدفع رشاش، خرجت كلها في ثلاث وأربعين ثانية فارتعبنا ولم نعرف ما الحكاية وفعلت المفاجأة بنا فعلها، فمنا من أسرع يطلب الباب، يريد الفرار، ومنا من صرخ، ومنا من سقط على الأرض، ومنا من وضع يده على سلاحه...

والأمير يضحك، قد راقته هذه الدعابة، ونظر إليَّ

كالمتسائل، فقلت: ما هذا؟ لقد حسبته (الغزو)][1].

ومن ذلك قوله:

[لما دخلنا تعلقت بنا الأنظار ودارت حولنا الأبصار، وخف بنا شباب يسلمون علينا فقلنا: وعليكم السلام يا إخواننا..

فما راعنا إلا أنهم ضحكوا، وضحك الحاضرون، فقلت لأحدهم: قل لي لماذا تضحك؟ هل تجد في هيئتي ما يضحك؟ فازداد الخبيث ضحكًا. فهممت به، فوثب الحاضرون فقالوا: يا للعجب! أتضرب فتاة؟ وإذا الذين حسبناهم شبانًا فتيات بسراويل (بنطلونات) وحلل (بذلات) فسرنا ونحن مستحيون، نحاول أن لا نعيدها كرة أخرى. ولما خرجت في الليل لمحت في طريقي واحدة من هؤلاء النسوة، فحيتنا، فقلت لها: مساء الخير، مدموزيل، قال: مدموزيل ايه يا وقح؟ فقلت في نفسي: إنها متزوجة، وقد ساءها أني دعوتها بالمدموزيل (الآنسة)، وأسرعت فتداركت الخطأ، وقلت: بردون مدام. قالت: مدام في عينك يا قليل الأدب، بأي حق تمزح معي؟ أنا فلان المحامي، فقلت: عفوًا بردون.

ووليت هاربًا! وذهبت إلى صاحب الفندق فرجوته أن يعمل لنا طريقة للتفريق بين الرجل والمرأة، فدهش مني، ووجم لحظة، ثم قدر أني أمزح فانطلق ضاحكًا.

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٩٦، ٩٧).

قلت: إنني لا أمزح، ولكني أقول الجد، وقصصت عليه القصة.

قال: وماذا نعمل. قلت: لوحات صغيرة مثلاً من النحاس، أو من الفضة، توضع على الصدر يكتب عليها «رجل» أو «امرأة». تعلق تحت الثدي الأيسر، في مكان القلب. أو تتخذ حلية من الذهب أو الفضة، عليها صورة ديك مثلاً أو دجاجة، أو شاة أو خروف، أو شيء آخر من علامات التذكير والتأنيث][١]!!

ومن ذلك قوله:

[وخرجنا من القصر ونحن نحس كأننا قد خرجنا من أنفسنا، وانتقلنا من العالم الشعري الساحر إلى عالم الحقيقة الوعر البارد.

مررنا على جُبٍّ واسع للماء خبرنا من معنا أن بعض الجاهلين من الأدلاء والتراجمة يدعون بأنه سجن ويختلقون عنه الأكاذيب.

وهؤلاء الأدلاء والتراجمة بلاء أزرق، يفسدون تاريخنا، ويشوهون ماضينا.

في جامع بني أمية منارة يسميها الناس مئذنة عيسى. سمعت مرة أحد هؤلاء التراجمة يقول بالفرنسية لبعض السياح: «هذه المنارة هي التي بناها الوليد بن هارون الرشيد ليسوع» ولذلك سميت منارة عيسى، وهؤلاء السياح يكتبون في دفاترهم ما يقول

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٦٥).

فينشرونه على أنه كتاب علمي عن الشرق وأهله!

ولقد قرأت مرة لكاتبة فرنسية زارت دمشق وكتبت كتابًا عنها قالت فيه: «ويخرج أهل دمشق كل مساء لزيارة قبر النبي في مكة، ويرجعون ليناموا في بيوتهم»! وما قبر النبي في مكة، ولا مكة في دمشق، ولا يخرج أهل دمشق ولا يدخلون، ولكن الحماقة ألوان، والجنون فنون][1].

تواضعــه:

تنتشر في كتب الشيخ عبارات التواضع مع الآخرين، مما يدل على سمو خلق الشيخ، وعدم تحرجه من نشر مثل هذا التواضع الذي قد يحجم عنه البعض. يقول الشيخ:

[وأشهد مع ذلك أن الشيخ محمد الحامد كان صادقًا مع الله، صادقًا مع نفسه، وقد جعل الله له من الأثر في الناس ما لم يجعل لعشرات من أمثالي أنا][2].

ويقول عن حسن البنا:

[لما شرعت أكتب في (الرسالة) في أوائل عهدها كان القراء يحسبونني شيخًا كبير السن، وقد ظن الشيخ حسن البنا ظنهم، ونسي أنه لقيني عند خالي شابًا، وعندي منه رسالة بخطه يخاطبني بها خطاب طالب صغير للشيخ الكبير، مع أنه الأكبر سنًا وقدرًا

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٣٠).
(٢) المصدر السابق (٥/ ١٣٠).

ومنزلة وأثرًا صالحًا، ـ رحمه الله ـ][١].

ويقول عن سيد قطب:

[كنت باديء الرأي في صف وكان في صف، كنا في صف الرافعي وهو أقرب إلى الجهة الإسلامية، وكان في صف العقاد قبل أن يؤلف العقاد كتبه الإسلامية. ثم اقترب منا بكتابه «التصوير الفني» ثم أعطاه الله ما أرجو أن أُعطى نصفه أو ربعه أو عُشره، فعلا عليّ وسبقني، وصنع ما لم أصنع مثله حين ألَّف «الظلال»، ثم أعطاه الله النعمة الكبرى التي طالما تمنيتها ولم أعمل لها:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تمشي على اليبس][٢]

ويقـــول:

[اجتمعنا أولاً في دار الإفتاء، وكانت في طريق الصالحية تحت الجسر الأبيض، واتفقوا على أن يفتتح الكلام المفتي ثم أتولى أنا شرح الأمر، وهذه إحدى المرات التي شرفني فيها العلماء بأن أتكلم عنهم، وأنطق بلسانهم، وإن كنت أقلهم علمًا، وأدناهم منزلة][٣].

ويقـــول:

[ثابرت على ما كنت فيه من الكتابة في الصحف اليومية، والمشاركة في أحداث البلد، والخطابة في المجامع وفي المساجد،

---

(١) المصدر السابق (٥/ ١٣٢).

(٢) المصدر السابق (٥/ ١٤٢).

(٣) المصدر السابق (٥/ ٢٩٥).

والكتابة في مجلة الرسالة، وقد توطد مكاني فيها، وصرت في الطبقة الثانية من كُتَّابها، بعد الزيّات والعقّاد والرافعي وطه حسين والمازني، وربما قُدِّمت مقالتي على مقالة زكي مبارك، وهو أكتب مني وأحلى أسلوبًا][١].

ويقول الشيخ عن الألباني:

[الشيخ ناصر أعلم مني بعلوم الحديث، وأنا أحترمه لجده ونشاطه وكثرة تصانيفه التي يطبعها له أخي وولدي النابغة الأستاذ زهير الشاويش، وأنا أرجع إلى الشيخ ناصر في مسائل الحديث ولا أستنكف عن أن أسأله عنها، معترفًا بفضله. وأنكر عليه إذا تفقه فخالف ما عليه الجمهور، لأنه ليس بفقيه][٢].

مواعظـــه:

لا يخلي الشيخ كتابًا من كتبه إلا ويوجه فيه موعظة تنفع جيل الشباب في مستقبلهم يستفيدونها من مشوار عمره الطويل، فيدعوهم الشيخ إلى محاسبة النفس، أو الإخلاص في العمل، أو غيرها من النصائح النافعة. فمن ذلك قوله:

[كنت أكتب للأدب، أشتري رضى القراء وإعجابهم، كنت أبالغ أحيانًا وأزخرف الحقيقة وأجملها، أما اليوم فسأكتب شيئًا آخر. لا أقول إني فقدت الحس، حتى لا أُفرق بين المدح والذم،

---

(١) المصدر السابق (٤/ ١٦١).

(٢) فتاوى الطنطاوي، ص١٥٨.

ولا بين الخيبة والنجاح، فأنا كغيري من الناس، أحب أن أمدح وأن أنجح وأن أكون الذي تتوجه إليه الأنظار، وتشير إليه الأيدي، ولكن الأيام علمتني أن هذا كله مؤقت: تمثال من الثلج كالذي يصنعه الأولاد في البلاد الباردة. تمثال جميل ولكنه يعيش ريثما تطلع عليه الشمس وتحمى، فإذا هو يسيل ماء يختلط بتراب الأرض فيصير وحلاً][1].

ويقــول:

[إني من ستين سنة، أعلم وأكتب وأخطب وأحدث، اللهم لا أدعي أن ذلك كله، كان خالصًا لوجهك، وليته كان، ولكني بشر أطلب ما يطلبه البشر، من المال الحلال، ويسرني المديح، وتستهويني متع الدنيا، فهل يضيع لذلك جهدي كله؟ هل أخرج فارغ اليدين لم أنل شيئًا من الثواب؟ إني لأمتحن نفسي، أسائلها كل يوم، هل كانت الدنيا وحدها همي؟ لو عرض عليَّ أضعاف ما آخذه الآن على مقالاتي وكتبي وأحاديثي، على أن أجعلها كتبًا ومقالات وأحاديث في الدعوة إلى الكفر هل كنت أرضى؟ فليست إذن كلها للدنيا، كما إنها ليست مبرأة من مطالب الدنيا.

قلت لكم إني أفكر في الموت، وأعرف أني على عتباته، إنه يمكن أن أعيش عشرين سنة أخرى كما عاش بعض مشايخي، وكما يعيش اليوم ناس من معارفي، ولكن هل ينجيني ذلك من الموت؟ فما الذي أعددته للقاء ربي، اللهم إني ما أعددت إلا توحيدًا

---

(١) ذكريات الطنطاوي (٤/ ٧٤).

خالصًا خاليًا من الشرك، وإني ما عبدت غيرك ولا وجهت شيئًا مما يعد عبادة إلى سواك، وإنني أرجو مغفرتك، وأخشى عواقب ذنبي فاللهم ارحمني واغفر لي][(١)].

بُعده عن اللهـو:

يتضح من كتابات الشيخ أنه كان فتىً مجدًا في أول حياته، بعيدًا عن اللهو الذي يشتغل به الصبية والشباب، وهذه رحمة من الله به أن صرف عنه الشرور من صغره، يقول الشيخ:

[كنت يومئذٍ شابًا، لا زوجة لي ولا ولد، ولا أرَب لي في لهوٍ أرتاد مكانه، ولا شغل من أشغال الدنيا أسعى وراءه][(٢)].

ويقول عن أحد المواقف التي مرت به:

[وكان في هذه الغرفة مدخل شبه خاص يفضي إلى الشارع. وكانت الممرضة بنتًا لطيفة حلوة، ما كان لي من حلاوتها وجمالها إلا ما كان يغني به محمد عبدالوهاب عن القمر قديمًا:

حظنـــا منـــه النظـــر   والنظـر راحْ يـرضـي ميـن

أرضاني أنا، لا لأن نفسي تقنع به، بل لأنها لا تستطيع الوصول إلى أكثر منه، ولولا نشأتي الإسلامية القوية، ولولا حفظ الله لي ـ وله الحمد عليه ـ لكان لي معها أكثر من النظر ومن الحديث. فقد كانت جميلة لطيفة، وكنت شابًا قويًا. وإن لم أكن

---

(١) المصدر السابق (٧/ ٢٩٣).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٢١).

جميلاً، فلست قبيحًا. وأحسب أنني لو فتحت لها الطريق لالتقينا على ما لا يرضي الله][1].

نباهته :

يأخذ الشيخ الطنطاوي على بعض علماء الإسلام غفلتهم عن مكر الأعداء، وإحسانهم الظن بكل أحد، فيقول:

[ولقد خُدع أكثر من ذهب إلى روسيا من العلماء والمشايخ، حتى شيخنا الشيخ بهجة. وكانت لي دروس ليلة في مسجد الجامعة في دمشق، وكنت أتكلم ليلة عن الشيوعية، فدخل شيخنا الشيخ بهجة. ففرحت، وقلت له: تفضل يا سيدي أهلاً وسهلاً. حدّثهم عما رأيت في روسيا.

فكان مما قاله: إنه لم ير عورة بادية، ولا ذراعًا عارية، ما رأى إلاّ الحجاب السابغ، فتألمت: ووجدت أنه ـ غفر الله له ـ سيهدم عليّ ما بنيت، وينقض ما أبرمت، فسألته لأنبه الشباب السامعين: وكم هي درجة الحرارة هناك يا سيدي؟ فقال: عشرون تحت الصفر. فأفهمتهم أن هذا الحجاب للخوف من البرد لا للحرص على الفضيلة.

وفي كثير من مشايخنا الكبار مثل هذا البعد عن المكر، حتى أن الواحد منهم يُمكر به فلا يشعر مع أن عمر كان يقول: «لست بالخِبّ، ولكن الخب لا يخدعني»، من ذلك أنه لما كان الحاج

---

(١) المصدر السابق (٤/٦٨، ٦٩).

أمين الحسيني يناضل الانكليز في فلسطين سألوا مفتي مصر يومئذٍ عن وظيفة المفتي فأجابهم. قالوا له: وهل من عمله الاشتغال بالسياسة؟ فأجاب قائلاً: لا. فأخذوا من جواب مفتي مصر حجة على مفتي فلسطين!][١].

* * *

(١) رجال من التاريخ، ص٤١٨، ٤١٩.



عقيدة الطنطاوي

عقيدة الطنطاوي

يعد كتاب «تعريف عام بدين الإسلام» للشيخ علي الطنطاوي نافذتنا التي نُطل منها على عقيدة الشيخ التي كتبها بخط يده بخلاف كتبه الأخرى التي تميل إلى الإنشاء والأدب أكثر من تقرير الحقائق وشرحها[1].

وقد ذكر الشيخ في مقدمة هذا الكتاب الباعث له على تأليفه أو كما يقول: [قصة هذا الكتاب].

يقول الشيخ: [تنبهت مبكرًا إلى ضرورة عرض الإسلام بأسلوب عصري، وكتبت في ذلك مقالات، ونشرت رسائل، ذكرت منها من نحو خمسين سنة بعض الآراء التي أوردها اليوم في هذا الكتاب][2].

وسنعرف قريبًا معنى (عرض الإسلام بأسلوب عصري) عندما نفرغ من المرور على مباحث هذا الكتاب والتعليق على ما يستحق التعليق منها.

يقول الشيخ عن كتابه:

[كنت أنزل في ضاحية من عمان: مكتبتي في دمشق، وأوراقي في مكة، وما عندي إلا المصحف وما استقرّ في ذهني مما

---

(١) وللشيخ إسماعيل الأنصاري - رحمه الله - ردٌ على هذا الكتاب على صفحات مجلة الدعوة (تاريخ ٢٦/٩/١٣٩١هـ).

(٢) تعريف عام بدين الإسلام، ص٥.

قرأت وما سمعت من العلماء في أكثر من خمسين سنة، وما كان لي فيها من عمل إلا النظر في الكتب ومجالسة أهل العلم، فقلت: لعل هذا هو الخير، فما أؤلف هذا الكتاب للفقهاء والعلماء، بل للشبان، أعرِّفهم فيه ما الإسلام، وكلما أقللت النقل عن الكتب، وجئت بشيء جديد كان خيرًا لهم.

وباشرت العمل وأنجزتُ هذا الجزء الأول، وهو جزء العقيدة، في عشرة أيام][(١)].

قلت: يتكون هذا الكتاب من اثني عشر مبحثًا رئيسيًا عرض فيها الشيخ عددًا من المسائل العقدية.

المبحث الأول: بعنوان «دين الإسلام» وضَّحَ فيه الشيخ باختصار الأسس الكبرى للإسلام، وأن المسلم لا يكفر بترك الواجبات أو فعل المحرمات إذا لم يستحل ذلك، وإنما يكون عاصيًا قد يُعذبه الله يوم القيامة بلا خلود في النار، وقد يعفو عنه، وهذا هو منهج أهل السنة في عدم تكفير مرتكب الكبير، وإنما هو في مشيئة الله. إن شاء عذَّبه وإن شاء عفى عنه.

ويُسْتدرك على الشيخ هنا مسألة ترك الصلاة، فالصلاة من الواجبات على المسلم، ومع هذا فمن تركها فهو كافر كما هو الرأي الصحيح، لقوله ﷺ: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن**

---

(١) المصدر السابق، ص٩.

تركها فقد كفر»[١].

ولقوله ﷺ: «**بين الرجل وبين الكفر تركُ الصلاة**»[٢].

ولقول عبدالله بن شقيق: كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة[٣].

وأدلة هذه المسألة مبسوطة في كتب كثيرة[٤] فالشيخ في هذه المسألة اختار الرأي المرجوح وترك الراجح.

المبحث الثاني: بعنوان «تعريفـات» ذكر فيه الشيخ معنى عددٍ من المصطلحات التي تتكرر في هذا الكتاب كـ (العقيدة) و(الشك) و(الظن) و(العلم).

المبحث الثالث: بعنوان «**قواعد العقائد**» ذكر فيه الشيخ عدة قواعد منطقية ممهدة قبل الدخول في تفاصيل الكتاب، أو تفاصيل العقيدة، وهذه القواعد هي:

١ ـ أن الحواس قد تخطيء وتخدع أحيانًا في مسائل معدودة، وهذا لا يمنعني من الاعتماد عليها.

٢ ـ أننا نوقن بوجود أشياء ما شاهدناها كوجود بلد اسمه البرازيل

---

(١) أخرجه النسائي (١/ ٢٣١) والترمذي (٧/ ٣٦٨ تحفة).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٨٨).

(٣) أخرجه الترمذي وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٦٤).

(٤) منها: كتاب الصلاة لابن القيم، وحكم تارك الصلاة لابن عثيمين، و«الإنباه إلى حكم تارك الصلاة» للأخ عبدالله بن مانع.

ولم نزره في حياتنا، فاليقين كما يحصل لنا بالحس، يحصل أيضًا بالخبر الذي نعتقد صدق صاحبه.

٣ ـ أنه لا يحق لنا أن ننكر وجود أشياء لمجرد أننا لا ندركها بحواسنا. فالحواس محدودة.

٤ ـ أن الخيال البشري لا يستطيع أن يُسلم إلا بما أدركته الحواس.

٥ ـ أن العقل لا يستطيع أن يدرك شيئًا حتى يحصره بين اثنين: الزمان، والمكان، فما لم ينحصر بينهما لم يدركه العقل بنفسه.

٦ ـ أن الناس في الملمات يلجأون إلى الله، مؤمنهم وكافرهم، لأن الإيمان غريزة.

٧ ـ أن الإنسان يدرك بالحدس أن هذا العالم المادي ليس كل شيء وأن وراءه عالمًا روحيًا مجهولاً.

٨ ـ الاعتقاد بوجوب الحياة الآخرة نتيجة لازمة للاعتقاد بوجود الله.

المبحث الرابع: بعنوان «الإيمان بالله» أثبت فيه أن وجود الله عليه دلائل عقلية كثيرة، ورد فيه على الملحدين. وأثبت فيه (توحيد الربوبية)، وبين أن هذا التوحيد لا يكفي للنجاة، يقول الشيخ:

[إن ذلك وحده لا يكفي، لأن أكثر الأمم القديمة كانت تقول به، كفار قريش، الذين بُعث محمد ﷺ لإنكار شركهم، وتسفيه

عقائدهم، وكُلّف بحربهم، كانوا إذا سئلوا عنه اعترفوا به ولم ينكروه.

بل إن إبليس ـ وهو شر الخلق ـ ما أنكر أن الله ربه، تنبهت إلى هذا من قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي . . .﴾[١]، وقوله: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ . . .﴾[٢] فهو مُقِر بأن الله ربه!][٣].

قلت: أجاد الشيخ في هذا، لأنه لابد بعد الاعتراف بتوحيد الربوبية أن تقر وتعمل بتوحيد الألوهية، وهو أن لا تعبد إلا الله وحده لا شريك له.

المبحث الخامس: بعنوان «توحيد الألوهية» قرر فيه الشيخ أن لا تُصرف العبادة إلا لله وحده، وأن الله هو النافع الضار وحده.

يقول الشيخ رادًا على القبوريين:

[إن جئت قبر الطبيب بعد موته، فدعوته وهو لا يقدر أن يفحص المريض، وأن يصف الدواء، كانت استعانة ممنوعة. وإن عجز العلم ولم ينفع الدواء، فتوسلت إلى الشفاء بالدعاء، أو بالصدقة، أو طلبت من رجل صالح أن يدعو لك، كانت هذه استعانة مشروعة. وإن وقفت على قبر الرجل الصالح، فاستعنت به وهو لا يملك تحريك لسانه بالدعاء لك، ولا يقدر من عند نفسه على شفاء مريضك، كانت هذه استعانة ممنوعة.

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٣٩.
(٢) سورة ص، الآية: ٧٩.
(٣) تعريف عام بدين الإسلام، ص٦١.

وتوسلك إلى الشفاء بسقي المريض الدواء الذي وصفه له الطبيب مشروع، ولكن إن أخذت الوصفة فجعلتها (حجابًا) علقته بعنق المريض، أو نقعتها وسقيته ماءها، واعتقدت أن ذلك يشفيه فذلك ممنوع. وطلبك النفع بأشياء لم يجعلها الله سببًا ظاهرًا له ممنوع، فالمرأة العاقر التي تشتهي الولد، إذا استعانت بطب الأطباء، وبالأدوية التي أنزلها الله، المستخرجة وفق قوانين العلم، لم تأت أمرًا ممنوعًا ولم تخالف الدين، ولكن إذا اعتقدت (كما كان يعتقد عجائز الشام): أن قرع حلقة (جامع الحنابلة) في جبل قاسيون أول جمعة من رجب، يسبب لها الحبل، أو توسّلت إلى ذلك بربط خرقة على شباك أحد القبور، تكون قد ارتكبت ممنوعًا، وخالفت عقيدة التوحيد][1].

ثم بيَّن أن التحليل والتحريم لله وحده، ووجوب حب الله وخشيته.

رأيه في صفات الله:

ثم تحدث طويلاً عن مسألة صفات الله تعالى بعنوان «آيات الصفات» زلَّ فيها زلات شنيعة لم نكن نتوقعها منه، وهو يردد كثيرًا ـ كما سيأتي ـ بأنه سلفيُ العقيدة.

ولا أدري لماذا لم يُفرد لها الشيخ مبحثًا خاصًا بعنوان «توحيد الأسماء والصفات» كما فعل عند حديثه عن توحيد الربوبية

---

(١) المصدر السابق، ص٦٨، ٦٩.

أو الألوهية، لاسيما وهي من أهم المسائل التي خالف فيها أهل البدع على شتى أنواعهم، فكان الأولى بالشيخ توضيح هذه المسألة المهمة لشباب الأمة وإبراز منهج أهل السنة فيها لكي لا يضل فيها أحد من قرّاء الكتاب، ولكي نعبد الله حق عبادته بعد معرفة أسمائه الحسنى وصفاته العُلى اللائقة بجلاله.

يقول الشيخ:

[لقد اجتنبت في هذا الكتاب الخوض في المسائل الكلامية، وأعرضت عن سرد اختلافات المتكلمين، ولكن مسألة (آيات الصفات) قد طال فيها المقال، وكثر الجدال، ولابد من بعض البسط للكلام فيها](١).

قلت: لا أدري لماذا يعد الشيخ مسألة (صفات الله) من المسائل الكلامية التي ينبغي عدم الخوض فيها؟ مع أن القرآن والسُّنَّة قد تحدثا عنها بكل وضوح، وبيناها للناس أشد البيان، وآمن بها الصحابة والتابعون قبل خوض الخائضين فيها، وابتداع المبتدعين، فكان الأولى بالشيخ وهو يقرر العقيدة لشباب الأمة أن يبين منهج السلف الصالح فيها دون تهيب أو وجل ودون أن يبالغ في تصوير هذه المسألة وكأنها من المشكلات التي لا تُفهم. وأما مذاهب المبتدعة فيها فينبغي أن تُطرح ولا تُبسط ولا يُتعرض لها، لأنه لا فائدة للشباب من القيل والقال، وعرض الشبه ونقضها.

---

(١) المصدر السابق، ص٧١.

الحقيقة المؤلمة أن الشيخ عندما اختار في هذه المسألة رأيًا يخالف منهج السلف الصالح صوَّر المسألة بهذه الصورة.

يقول الشيخ:

[لقد وصف ربنا نفسه في القرآن بألفاظ موضوعة في الأصل للدلالة على معانٍ أرضية، ومقاصد بشرية، مع أن الله ليس كمثله شيء، وهو الرب الخالق، تعالى على أن يُشْبِه المخلوقين، ولا يمكن أن تُفهم هذه الألفاظ حين إطلاقها على الله، بالمعنى نفسه الذي تُفهم به حين إطلاقها على المخلوق.

فنحن نقول: فلان عليم، وفلان بصير، ونقول: إن الله عليم، بصير، ولكن الكيفية التي يَعلَم بها العبد ويبصر، ليست هي التي يعلم بها ربنا ويبصر. وعلم العبد وبصره ليس كعلم الله وبصره. كذلك نقول: استوى المعلم على منبر الفصل، ونقول: استوى الله على العرش، نحن نعرف معنى الاستواء (القاموسي) ونطبقه على المعلم، ولكن هذا المعنى لا يمكن أن يكون هو بذاته المقصود حين نقرأ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾[1]][2].

قلت: الصواب أننا نعرف معنى (الاستواء) وهكذا معاني الصفات الأخرى، ولكننا لا نعرف كيفيتها بالنسبة لله ـ عز وجل ـ.

فهاهنا حقيقتان:

---

(١) سورة طه، الآية: ٥.

(٢) تعريف عام بدين الإسلام، ص٧١، ٧٢.

الحقيقة الأولى: أننا نعرف معاني صفات الله (جميعها) لأن الله أنزل القرآن بلسانٍ عربي مبين، وأَمَرَنا بتدبر ما فيه.

الحقيقة الثانية: أن هذه الصفات التي عرفنا (معانيها) لا نستطيع أن نعرف (كيفيتها) بالنسبة لله، لأنه تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾.

ثم ذكر الشيخ بعد هذا أن السلفيين وأهل التأويل متفقون على نفي التعطيل والتشبيه عن الله، ولكنهم اختلفوا في تأويل هذه الصفات كما هو منهج الخَلَف، أو عدم تأويلها كما هو منهج السلف.

ثم نفاجأ بأنه ينصر مذهبًا ثالثًا هو شرٌ من مذهب أهل التأويل، ألا وهو مذهب (التفويض!).

يقول الشيخ:

[ولقد نظرت فوجدت أن هذه الآيات على ثلاثة أشكال:

١ - آيات وردت على سبيل الإخبار من الله، كقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾[1]. فنحن لا نقول: إنه ما استوى، فنكون قد نفينا ما أثبته الله. ولا نقول: إنه استوى على العرش كما يستوي القاعد على الكرسي، فنكون قد شَبَّهْنَا الخالق بالمخلوق، ولكن نؤمن بأن هذا هو كلام الله، وأن لله مرادًا منه لم نفهم حقيقته وتفصيله، لأنه لم يبين لنا مفصلاً، ولأن

---

(١) سورة طه، الآية: ٥.

العقل البشري ـ كما قدمنا ـ يعجز عن الوصول إلى ذلك بنفسه][1].

قلت: سقط الشيخ هنا سقطة شنيعة عندما رجَّح مذهب أهل التفويض، واعتقد أن بعض صفات الله هي مما لا نعلم (معانيها) ولا (المراد منها)، وهذا هو مذهب أهل التفويض أو أهل التجهيل كما يسميهم السلف. فالمذاهب الكبرى في هذه المسألة ثلاثة:

١ ـ **مذهب أهل التأويل**، وأبرز أنصاره هم متأخرو الأشاعرة الذين يتأولون صفات الله بشتى التأويلات التي يرونها لا تخرج عن نطاق اللغة العربية، فيتأولون صفة اليد مثلاً بالقدرة، وصفة العين بالحفظ، وصفة الاستواء بالاستيلاء... وهكذا. وهذا المذهب باطل، كما هو معلوم، لم يقل به واحد من السلف وإنما حدث بعد القرون المفضلة.

٢ ـ **المذهب الثاني: وهو المذهب الوسط**، مذهب السلف الصالح، وهو الإيمان بكل صفات الله الواردة في القرآن وفي الأحاديث الصحيحة دون تأويل أو تعطيل أو تشبيه أو تكييف لها. فنحن نعرف (معانيها) ولكننا لا نعرف (كيفيتها)، وإنما نقول: الله أعلم بذلك. وشعارنا في هذه المسألة هو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾[2] فنفى مشابهة صفاته لصفات المخلوقين، وأثبت لنفسه الصفات

---

(١) المصدر السابق، ص٧٣.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

العُلى، ففي هذه الآية ردٌّ على المشبِّهة وعلى المؤوِّلة أو المعطِّلة.

٣ ـ المذهب الثالث: الذي اختاره الشيخ هو مذهب أهل التفويض، وأهل هذا المذهب لما رأوا الصراع بين الحق وهو مذهب السلف، وبين الباطل وهو مذهب أهل التأويل لجأوا إلى مذهب ثالث مبتدَع يزعمون أنه الحق في هذه المسألة، وأنه يغنيهم عن الدخول في إشكالات الخلافات بين المذهبين السابقين.

فقالوا: بأن هذه الصفات لله الواردة في القرآن وفي السُّنَّة الصحيحة نحن لا نتأولها كما فعل الفريق الأول، ولا نؤمن بمعانيها كما فعل الفريق الثاني، بل نفوِّض معانيها وكيفيتها إلى الله ـ عز وجل ـ الذي أخبر بها، فنؤمن بها أسماء مجردة بلا معاني! فلا فرق عندنا بين قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾[2]! فكلاهما لا نعرف معناها، وهكذا سائر الصفات لا يعلم (معناها) إلا الله، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[3].

قلت: هذا ما قاله أصحاب هذا المذهب الباطل الذي ظنَّ كثير من المتأخرين (لاسيما الأشاعرة) أنه هو مذهب السلف

---

(١) سورة طه، الآية: ٥.
(٢) سورة مريم، الآية: ١.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧.

الصالح، فأصبحوا لا يذكرون في كتبهم عند الحديث عن مسألة الصفات سوى مذهب التأويل ويسمونه (مذهب الخَلَف)، ومذهب التفويض ويسمونه (مذهب السلف)، ويقولون كثيرًا بأن: (مذهب السلف ـ أي التفويض ـ: أسلم، ومذهب الخلف ـ أي التأويل ـ أعلم وأحكم)، وأما مذهب السلف الحقيقي فلا يذكرونه، وإن ذكره بعضهم فيظن لجهله به أنه مذهب المشبِّهة! كما فعل الطنطاوي عندما أطلق على ابن تيمية بأنه (مشبِّه)!! كما سيأتي ذلك.

إذًا فالطنطاوي قد قلَّد متأخري الأشاعرة عندما ظن السلامة في ترجيح مذهب التفويض في صفات الله وجهل أن هذا المذهب هو شر المذاهب، وأظن أن الذي قاده لهذا الرأي هو دراسته الأولى على كتب المبتدعة من الصوفية والأشاعرة، كما سيأتي اعترافه بذلك، ولم تسعفه قراءته وتتلمذه على كتب السلف في تجلية عقيدته في هذه المسألة فاستمر على خطئه، وكما قيل: العلم في الصغر كالنقش في الحجر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ناقضًا مذهب المفوِّضة:

[«وأما التفويض فمن المعلوم أن الله أمرنا بتدبر القرآن، وحضَّنا على عقله وفهمه، فكيف يجوز مع ذلك أن يُراد منا الإعراض عن فهمه ومعرفته وعقله». إلى أن قال: «فعلى قول هؤلاء يكون الأنبياء والمرسلون لا يعلمون معاني ما أنزل الله عليهم

من هذه النصوص، ولا الملائكة، ولا السابقون الأولون، وحينئذٍ فيكون ما وصف الله به نفسه في القرآن، أو كثير مما وصف الله به نفسه لا يعلم الأنبياء معناه، بل يقولون كلامًا لا يعقلون معناه».

قال: «ومعلوم أن هذا قدح في القرآن، والأنبياء إذ كان الله أنزل القرآن وأخبر أنه جعله هدىً وبيانًا للناس، وأمر الرسول أن يبلغ البلاغ المبين، وأن يبيِّن للناس ما نزل إليهم، وأمر بتدبر القرآن وعقله، ومع هذا فأشرف ما فيه وهو ما أخبر به الرب عن صفاته، أو عن كونه خالقًا لكل شيء وهو بكل شيء عليم، أو عن كونه أمر، ونهى، ووعد، وتوعد، أو عما أخبر به عن اليوم الآخر لا يعلم أحد معناه فلا يُعقل، ولا يتدبر، ولا يكون الرسول بيَّن للناس ما نزل إليهم، ولا بلّغ البلاغ المبين، وعلى هذا التقدير فيقول كل ملحد ومبتدع: الحق في نفس الأمر ما علمته برأيي وعقلي، وليس في النصوص ما يناقض ذلك، لأن تلك النصوص مشكلة متشابهة، ولا يعلم أحد معناها وما لا يعلم أحد معناه لا يجوز أن يُستدل به، فيبقى هذا الكلام سدًّا لباب الهدى والبيان من جهة الأنبياء، وفتحًا لباب من يعارضهم ويقول إن الهدى والبيان في طريقنا لا في طريق الأنبياء، لأنا نحن نعلم ما نقول ونبينه بالأدلة العقلية، والأنبياء لم يعلموا ما يقولون، فضلاً عن أن يبينوا مرادهم، **فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد»]**[1].

---

(١) نقلاً عن «تقريب التدمرية» للشيخ ابن عثيمين، ص٨٢، ٨٣.

وقال ابن القيم:

[أصحاب التجهيل الذين قالوا: نصوص الصفات ألفاظ لا تعقل معانيها ولا يدرى ما أراد الله ورسوله منها، ولكن نقرؤها ألفاظًا لا معاني لها، ونعلم أن لها تأويلاً لا يعلمه إلا الله، وهي عنده بمنزلة ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾[1] و﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾[2] و﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾[3]، فلو ورد علينا منها ما ورد لم نعتقد فيه تمثيلاً ولا تشبيهًا ولم نعرف معناه، وننكر على من تأوله ونكل علمه إلى الله تعالى.

وظن هؤلاء أن هذه طريقة السلف، وأنهم لم يكونوا يعرفون حقائق الأسماء والصفات ولا يفهمون معنى قوله تعالى: ﴿.. لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ...﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ...﴾[5]، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾[6].

وأمثال ذلك من نصوص الصفات.

وبنو هذا المذهب على أصلين:

أحدهما: أن هذه النصوص من المتشابه.

---

(١) سورة مريم، الآية: ١.
(٢) سورة الشورى، الآيتان: ١، ٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١.
(٤) سورة ص، الآية: ٧٥.
(٥) سورة الزمر، الآية: ٧٦.
(٦) سورة طه، الآية: ٥.

والثاني: أن للمتشابه تأويلاً لا يعلمه إلا الله.

فنتج من هذين الأصلين، استجهال السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة والتابعين لهم، وأنهم كانوا يقرؤون هذه الآيات المتعلقة بالصفات ولا يعرفون معنى ذلك ولا ما أُريد به.

ولازم قولهم: أن رسول الله ﷺ كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه](١).

وقال الشيخ ابن باز ـ حفظه الله ـ:

[ليس الأسلم تفويض الأمر في الصفات إلى علام الغيوب، لأنه ـ سبحانه ـ بيّنها لعباده وأوضحها في كتابه الكريم وعلى لسان رسوله الأمين ﷺ ولم يبيِّن كيفيتها، فالواجب تفويض علم الكيفية لا علم المعاني، وليس التفويض مذهب السلف بل هو مذهب مبتدع مخالف لما عليه السلف الصالح. وقد أنكر الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ وغيره من أئمة السلف على أهل التفويض، وبدَّعوهم لأن مقتضى مذهبهم أن الله ـ سبحانه ـ خاطب عباده بما لا يفهمون معناه ولا يعقلون مراده منه، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يتقدس عن ذلك، وأهل السُّنَّة والجماعة يعرفون مراده ـ سبحانه ـ بكلامه ويصفونه بمقتضى أسمائه وصفاته وينزهونه عن كل ما لا يليق به ـ عز وجل ـ. وقد علموا من كلامه ـ سبحانه ـ ومن كلام رسوله

(١) مختصر الصواعق (١/ ٨١ ـ ٨٢).

ﷺ أنه ـ سبحانه ـ موصوف بالكمال المطلق في جميع ما أخبر به عن نفسه أو أخبر به عنه رسوله ﷺ](١).

قلت: تبين بهذا أن الشيخ الطنطاوي قد خالف مذهب السلف في صفات الله، واختياره لمذهب التفويض فيها.

ومما يثير الاستغراب حقًا أن الشيخ ـ عفا الله عنه ـ قد نكص عن هذا المذهب وتردد فيه في موضع آخر فاختار أن الأسلم في باب الصفات هو تأويلها!! فانتقل من طرف إلى طرف. فقد تأوَّل صفة (القدم) الواردة في الحديث الصحيح، وهو قوله ﷺ: «**لا تزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع فيها الجبار قَدَمه**»(٢)، تأوَّل الطنطاوي صفة القَدَم عن معناها بزعم تنزيه الله عن مشابهة خلقه، وذلك في برنامجه (مسائل ومشكلات) في يوم ٢٩/٤/١٣٩٦هـ، وقد ردَّ عليه حينها الشيخ محمد المجذوب في مقالٍ له بعنوان (صفات ربنا حقيقة)(٣).

قال المجذوب:

[ما الذي يحول بيننا وبين الإيمان بأن لربنا قدمًا وعينًا وسمعًا وبصرًا وساقًا وما إلى ذلك مما ثبت من صفاته العُلى في كتابه وحديث رسوله ﷺ؟ وفيم نفتح على أنفسنا أبواب التكليف فنصرفها عن وجوهها إلى المجازات والكنايات وما في سبيلها؟

---

(١) تنبيهات على ما كتبه الصابوني في صفات الله، ص١٢، ١٣.
(٢) أخرجه البخاري ومسلم.
(٣) ثم نشره في كتابه «ردود ومناقشات».

إذا كان الباعث على ذلك خوف الوقوع في التشبيه والتجسيم فقد كفانا الله ذلك الخطر بنفي مشابهته لخلقه في أي شيء، فنحن نؤمن بكل ما صح عنه وعن رسوله في صفاته مع كمال تنزيهه عن المشابهة.. فَيَده وقدمه وعينه مثلاً كعلمه وقدرته وحكمته، نثبتها كلها على الوجه اللائق بكماله ـ سبحانه ـ. فكما أن علمه لا يشبهه علم الإنسان، وقدرتُه وحكمته لا مجال للمشابهة بينهما وبين هاتين الصفتين في مخلوقاته، كذلك الأمر في القدم واليد والعين، لا تشبهها قدم، وعين لا تناظرها عين، ويد لا تقاس بها يد][1].

قلت: لا أدري أي المذهبين استقر عليه الشيخ آخر عمره! فلعله كما انتقل النقلة الأولى من التفويض إلى التأويل ينتقل نقلةً أخرى من التأويل إلى المذهب السلفي الحق، لاسيما وهو القائل: [قد قلت مئة مرة أن رجوعي عن الخطأ واعترافي به أهون عليَّ من شرب الماء][2].

بعد هذا قال الشيخ متابعًا تقسيمه لأنواع آيات صفات الله بأن منها:

[٢ ـ آيات وردت على الأسلوب المعروف عند علماء البلاغة بالمشاكلة][3].

---

(١) «ردود ومناقشات»، ص٩٣، ٩٤.
(٢) فتاوى الطنطاوي، ص١٣١.
(٣) تعريف عام بدين الإسلام، ص٧٣.

ومثَّل لهذا بالمكر الوارد في قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾[١]، والخداع ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[٢]، ونحوها.

قلت: والصواب في هذه الآيات وما شابهها: أن لا تحمل على المشاكلة لأن هذا سيفتح لنا باب شرٍ عريض سينفذ منه من يتأول صفات الله ـ عز وجل ـ.

قال الشيخ ابن عثيمين ـ حفظه الله ـ:

[ثم إنَّ فَتْح باب المشاكلة ينفتح به إشكالات، أَلاَ ترى أن الذاهبين لذلك أنكروا من أجله صفات يثبتها السلف أهل السُّنَّة.

فقالوا: إن الاستهزاء الذي أخبر الله به عن نفسه في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[٣] من المشاكلة.

وقالوا: إن الخداع الذي أخبر الله به عن نفسه في قوله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[٤] من المشاكلة.

وقالوا: إن المكر الذي أخبر الله به عن نفسه في قوله: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾[٥] من المشاكلة.

وقالوا: إن الكيد الذي أخبر الله به عن نفسه في قوله:

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٤٢.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

﴿ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ ﴾[(١)] من المشاكلة.

وقالوا: إن الرضى الذي أخبر الله به عن نفسه في قوله: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾[(٢)] من المشاكلة.

إلى غير ذلك مما ذكروه، ونفوا من أجله حقيقة ما وصف الله به نفسه من ذلك][(٣)].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

[لا ريب أن هذه المعاني يُذَم بها كثيرًا فيقال: فلان صاحب مكر وخداع وكيد واستهزاء، ولا تكاد تُطلق على سبيل المدح بخلاف أضدادها، وهذا هو الذي غرَّ من جعلها مجازًا في حق من يتعالى ويتقدس عن كل عيب وذَم، والصواب أن معانيها تنقسم إلى محمود ومذموم، فالمذموم منها يرجع إلى الظلم والكذب، فما يذم منها إنما يذم لكونه متضمنًا للكذب أو الظلم أو لهما جميعًا. وهذا هو الذي ذمَّه الله تعالى لأهله كما في قوله تعالى: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾[(٤)]، فإنه ذكر هذا عقيب قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾[(٥)]، فكان هذا القول منهم كذبًا وظلمًا في حق التوحيد والإيمان بالرسول واتباعه، وكذلك قوله: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ

---

(١) سورة الطارق، الآية: ١٦.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٩.
(٣) الجواب المختار لهداية المحتار، ص٢٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٩.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٨.

ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾[١] الآية، وقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾[٣]، فلما كان غالب استعمال هذه الألفاظ في المعاني المذمومة؛ ظن العاطلون أن ذلك هو حقيقتها، فإذا أُطلقت لغير الذم كانت مجازًا، والحق خلاف هذا الظن وأنها منقسمة إلى محمود ومذموم، فما كان منها متضمنًا للكذب والظلم فهو مذموم، وما كان منها بحق وعدل ومجازاة على القبيح فهو حسن محمود، فإن المخادع إذا خادع بباطل وظلم حسن من المجازي له أن يخدعه بحق وعدل، وذلك إذا مكر واستهزأ وظلم متعديًا كان المكر به والاستهزاء عدلاً حسنًا، كما فعله الصحابة بكعب بن الأشرف وابن أبي الحقيق وأبي رافع وغيرهم ممن كان يعادي رسول الله ﷺ فخادعوه حتى كفوا شره وأذاه بالقتل، وكان هذا الخداع والمكر نصرةً لله ورسوله وكذلك ما خدع به نعيم بن مسعود المشركين عام الخندق حتى انصرفوا، وكذلك خداع الحجاج بن علاط لامرأته وأهل مكة حتى أخذ ماله، وقد قال النبي ﷺ: «**الحرب خدعة**» وجزا المسيء بمثل إساءته جائز في جميع الملل مستحسن في جميع العقول، ولهذا كاد ـ سبحانه ـ ليوسف حين أظهر لإخوته ما أبطن خلافه جزاءً لهم على كيدهم له مع أبيه حيث أظهروا له أمرًا وأبطنوا خلافه، فكان

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤٥.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.
(٣) سورة النمل، الآيتان: ٥٠، ٥١.

هذا من أعدل الكيد فإن إخوته فعلوا به مثل ذلك، حتى فرَّقوا بينه وبين أبيه وادَّعوا أن الذئب أكله ففرق بينهم وبين أخيهم بإظهار أنه سرق الصواع، ولم يكن ظالمًا لهم بذلك الكيد، حيث كان مقابلة ومجازاة، ولم يكن أيضًا ظلمًا لأخيه الذي لم يكده بل كان إحسانًا إليه وإكرامًا له في الباطن وإن كان طريق ذلك مستهجنة، لكن لما ظهر بالآخرة براءته ونزاهته مما قذفه به وكان ذلك سببًا إلى اتصاله بيوسف واختصاصه به لم يكن في ذلك ضرر عليه، يبقى أن يقال: وقد تضمن هذا الكيد إيذاء أبيه وتعريضه لألم الحزن على حزنه السابق، فأي مصلحة كانت ليعقوب في ذلك؟ فيقال: هذا من امتحان الله تعالى له، ويوسف إنما فعل ذلك بالوحي، والله تعالى لما أراد كرامته كمل له مرتبة المحنة والبلوى ليصبر فينال الدرجة التي لا يصل إليها إلا على حسب الابتلاء، ولو لم يكن في ذلك إلا تكميل فرحه وسروره باجتماع شمله بحبيبه بعد الفراق، وهذا من كمال إحسان الرب تعالى أن يذيق عبده مرارة الكسر قبل حلاوة الجبر، ويعرفه قدر نعمته عليه بأن يبتليه بضدها كما أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لما أراد أن يكمل لآدم نعيم الجنة أذاقه مرارة خروجه منها ومقاساة هذه الدار الممزوج رخاؤها بشدتها، فما كسر عبده المؤمن إلا ليجبره، ولا منعه إلا ليعطيه، ولا ابتلاه إلا ليعافيه، ولا أماته إلا ليحييه ولا نغَّص عليه الدنيا إلا ليرغبه في الآخرة، ولا ابتلاه بجفاء الناس إلا ليرده إليه. فعلم أنه لا يجوز ذم هذه الأفعال على الإطلاق كما لا تمدح على الإطلاق، والمكر والكيد والخداع لا يذم من جهة العلم ولا من جهة القدرة، فإن العلم والقدرة من

صفات الكمال، وإنما يذم ذلك من جهة سوء القصد وفساد الإرادة وهو أن الماكر المخادع يجور ويظلم بفعل ما ليس له فعله، أو ترك ما يجب عليه فعله، إذا عرف ذلك فنقول: إن الله تعالى لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء مطلقًا، ولا ذلك داخل في أسمائه الحسنى، ومن ظن من الجُهّال المصنفين في شرح الأسماء الحسنى أن من أسمائه الماكر المخادع المستهزيء الكائد؛ فقد فاه بأمر عظيم تقشعر منه الجلود، وتكاد الأسماع تصم عند سماعه، وغرَّ هذا الجاهل أنه ـ سبحانه وتعالى ـ أطلق على نفسه هذه الأفعال فاشتق له منها أسماء، وأسماؤه كلها حسنى، فأدخلها في الأسماء الحسنى وأدخلها وقرنها بالرحيم الودود الحكيم الكريم، وهذا جهل عظيم، فإن هذه الأفعال ليست ممدوحة مطلقًا، بل تمدح في موضع وتذم في موضع، فلا يجوز إطلاق أفعالها على الله مطلقًا، فلا يُقال أنه تعالى يمكر ويخادع ويستهزيء ويكيد، فكذلك بطريق الأولى لا يُشْتق له منها أسماء يسمى بها، بل إذا كان لم يأت في أسمائه الحسنى المريد ولا المتكلم ولا الفاعل ولا الصانع لأن مسمياتها تنقسم إلى ممدوح ومذموم، وإنما يوصف بالأنواع المحمودة منها كالحليم والحكيم والعزيز والفَعَّال لما يريد، فكيف يكون منها الماكر المخادع المستهزيء؟][1].

ثم قال الطنطاوي متابعًا عرضه لآيات الصفات:

[٣ ـ آيات دلَّت على المراد منها آيات آخرى، كقوله تعالى:

---

(١) مختصر الصواعق (٢/ ٣١ ـ ٣٤).

﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ ﴾(١).

تدل على المراد منها آية:

﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ ﴾(٢).

ويُفهم منها أن بسط اليد يراد به الكرم والجود، ولا يستلزم ذلك (بل يستحيل) أن يكون لله تعالى يدان كأيدي الناس والحيوان، تعالى الله عن ذلك](٣).

قلت: هنا تأول الشيخ صفة اليد لله ـ عز وجل ـ، وأنها كناية عن الكرم والجود! فمرةً يفوِّض ومرةً يُؤَوِل دون أي ضابط أو قاعدة يسير عليها.

والصواب في هذه الصفة وغيرها من الصفات: إثبات معناها في حق الله ـ عز وجل ـ كما يليق بجلاله، ولم يقل أحدٌ من السلف بأنها يد كأيدي المخلوقين، وإنما هذا ما وقر في ذهن الشيخ وغيره من المؤولة أداهم إلى تأويل الصفات، فهم قد شبهوا أولاً ثم أوَّلوا آخرًا.

وصفة اليد قد دلت عليها آيات كثيرة لم يذكرها الشيخ وإنما اكتفى لغرضٍ في نفسه بالآية السابقة! من أصرح تلك الآيات قوله تعالى مخاطبًا إبليس ﴿ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾(٤) فهذه

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.

(٣) تعريف عام بدين الإسلام، ص.

(٤) سورة ص، الآية: ٧٥.

الآية لا يستطيع متأوِّل أن يحملها على المجاز أو الكناية لأنها صريحة في إثبات هذه الصفة من وجوه:

١ ـ أنه لو قيل بأن اليد مجاز من القدرة أو النعمة كما يقول المؤولة، فإنه تعالى هنا قد ثنَّاها فقال: ﴿بِيَدَيَّ﴾ ولم يقل (بيدي).

٢ ـ أنه لو كان المراد باليد القدرة تبطل فائدة تخصيص آدم بذلك، فإنه وجميع المخلوقات حتى إبليس مخلوق بقدرته ـ سبحانه ـ! فأي مزية لآدم على إبليس؟.

٣ ـ أن الله قد جعل ذلك خاصةً خص بها آدم دون غيره، فلذلك قال له موسى عليه السلام في الحديث المشهور: «**أنت الذي خلقك الله بيده**» ولو كان المقصود باليد القدرة لما حسن تخصيصه بذلك.

إلى غير ذلك من الأوجه[١].

الخلاصة: أن الشيخ قد تأوَّل صفة اليد لله ـ عز وجل ـ كما تأوَّل سابقًا صفة القدم، وكما سيتأول كثيرًا من الصفات الواردة لو ذكرها، وهو إنما اكتفىٰ بأمثلة يسيرة توضح عقيدته.

فالشيخ في باب الأسماء والصفات ليس سلفي العقيدة كما يزعم، وإنما هو مُؤَول أومفوِّض.

---

(١) انظر: «مختصر الصواعق» لابن القيم (٢/ ١٥٣ ـ ١٧٤).

الطنطاوي يرى أن آيات الصفات من المتشابه:

بعد هذا أخطأ الشيخ خطأً عظيمًا عندما جعل آيات الصفات من قبيل المتشابه [التي لا يضِحُ[١] المعنى المراد منها][٢] وهذا كما علمنا خطأ شنيع، فإن أيًّا من السلف لم يجعل آيات الصفات من قبيل المتشابه، وإنما فسروها وعلموا معناها ولكنهم لم يتعرضوا لكيفيتها وهذا معنى قولهم: (أمروها كما جاءت) أي لا تتأولوها، وكما قال مالك: (الاستواء معلوم والكيف مجهول)؛ فمعنى الصفة مما نعلمه، وليس هو من المتشابه، وأما كيفية الصفة فهو مما استأثر الله بعلمه.

قال شيخ الإسلام:

[من قال: إن هذا[٣] من المتشابه وأنه لا يُفْهم معناه، فنقول: أما الدليل على بطلان ذلك فإني ما أعلم عن أحدٍ من سلف الأمة ولا من الأئمة ـ لا أحمد بن حنبل ولا غيره ـ أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل في هذه الآية ونفى أن يعلم أحد معناه. وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يُفهم. ولا قالوا: إن الله ينزل كلامًا لا يفهم أحد معناه، وإنما قالوا كلمات لها معانٍ صحيحة. قالوا في أحاديث الصفات: تمر كما جاءت. ونهوا عن تأويلات الجهمية وردُّوها وأبطلوها التي

---

(١) يضح هو الفعل المضارع لوَضَحَ، أفاده الشيخ.

(٢) تعريف عام بدين الإسلام، ص٧٥.

(٣) أي آيات الصفات.

مضمونها تعطيل النصوص عما دلت عليه.

ونصوص أحمد والأئمة قبله بينة في أنهم كانوا يبطلون تأويلات الجهمية ويقرون النصوص على ما دلت عليه من معناها، ويفهمون منها بعض ما دلَّت عليه، كما يفهمون ذلك في سائر نصوص الوعد والوعيد والفضائل وغير ذلك. وأحمد قد قال في غير أحاديث الصفات: تمر كما جاءت، وفي أحاديث الوعيد مثل قوله: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» وأحاديث الفضائل، ومقصوده بذلك أن الحديث لا يُحَرَّف كَلِمهُ عن مواضِعِهِ كما يفعله من يحرِّفه، ويسمي تحريفه تأويلاً بالعرف المتأخر.

فتأويل هؤلاء المتأخرين عند الأئمة تحريف باطل، وكذلك نص أحمد في كتاب «الرد على الزنادقة والجهمية» أنهم تمسكوا بمتشابه القرآن، وتكلم أحمد على ذلك المتشابه وبيَّن معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية وجرى في ذلك على سنن الأئمة قبله. فهذا اتفاق من الأئمة على أنهم يعلمون معنى هذا المتشابه، وأنه لا يُسْكَت عن بيانه وتفسيره بل يُبَيَّن ويُفَسَّر باتفاق الأئمة من غير تحريف له عن مواضعه، أو إلحاد في أسماء الله وآياته][(١)].

قال: [يقال لمن ادَّعىٰ في هذا أنه متشابه لا يعلم معناه: أتقول هذا في جميع ما سمىٰ الله ووصف به نفسه أم في البعض؟

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥).

فإن قلت: هذا في الجميع كان هذا عنادًا ظاهرًا وجحدًا لما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام بل كفر صريح. فإنا نفهم من قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾[١] معنى، ونفهم من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾[٢] معنى ليس هو الأول، ونفهم من قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٣] معنى، ونفهم من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾[٤] معنى. وصبيان المسلمين بل وكل عاقل يفهم هذا][٥].

قال: [ثم يقال لهذا المعاند: فهل هذه الأسماء دالة على الإله المعبود وعلى حق موجود أم لا؟ فإن قال: لا، كان معطلاً محضًا، وما أعلم مسلمًا يقول هذا. وإن قال: نعم، قيل له: فلم فهمت منها دلالتها على نفس الرب ولم تفهم دلالتها على ما فيها من المعاني من الرحمة والعلم وكلاهما في الدلالة سواء؟][٦].

قلت: وبهذا البيان نعلم خطأ قول الشيخ في هذه الصفات بأن المسلمين وسلف الأمة [**لم يتكلموا فيها، ولم يقولوا إنها حقيقة، ولم يقولوا إنها مجاز، ولم يخوضوا في شرحها، بل آمنوا بها كما جاءت من عند الله على مراد الله**]!!

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣١.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٢٠.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٤٧.
(٥) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٩٧).
(٦) المصدر السابق (١٣/ ٢٩٨).

تناقـض الشـيخ:

بعد هذا تناقض الشيخ ـ كعادته في هذا المبحث!

فقـــال:

[والحق أن هذه الآيات نزلت من عند الله، من أنكر شيئًا منها كَفَر، وأنَّ من عطَّلها تمامًا، فجعلها لفظًا بلا معنى كَفَر، ومن فهمها بالمعنى البشري، وطبّقه على الله، فجعل الخالق كالمخلوق كَفَر. والمسلك خطر، والمفازة مهلكة، والنجاة منها باجتناب الخوض فيها، واتباع سنن السلف، **والوقوف عند حد النص**، وهذا ما أدين الله به، وما أعتقده][(١)].

فمن يقرأ كلام الشيخ هذا يظن أنه يدين بمذهب السلف في الصفات، ويسير على سُنَنِهم، والصحيح أنه يدين بمذهب أهل التفويض ويعتقده مذهب السلف الصالح، وقد سبق بيان بطلان مذهب أهل التفويض، وبيان تناقض الشيخ في قوله السابق مع تأويلاته لكثير من الصفات كاليد والقدم ونحوها، وقد مرَّ هذا.

عودة إلى كتاب (تعريف عام...):

بعد هذا بيَّن الشيخ أهمية توحيد الألوهية بكلام مفيد (انظر ص٧٨).

المبحث السادس: عنونه الشيخ بـ «مظاهر الإيمان» بيَّن فيه

(١) تعريف عام بدين الإسلام، ص٧٦.

ارتباط الإيمان بالعمل، وأنه لابدَّ لتحقيق الإيمان من التزام بالأعمال. وأن لهذا الإيمان ثمرات: منها: ذكر الله، وخوفه، ورجاؤه، والتوكل عليه، وشكره، والصبر على طاعته وأقداره وعن معاصيه، والانقياد لحكمه، وأن يُحب في الله ويبغض في الله، والتوبة والاستغفار.

واختار الشيخ هنا أن الإيمان يزيد وينقص، وأن ارتكاب الكبيرة دون استحلال لها لا يخرج المسلم من دائرة الإسلام، بل يكون معرضًا للعذاب إن لم يتب الله عليه، وهذا كله موافق لمنهج السلف الصالح.

المبحث السابع: عنوانه: **«الإيمان باليوم الآخر»**، تحدث فيه الشيخ عن وجوب الاستعداد للموت، وأثبت فيه يوم القيامة، وأن الناس لا يعلمون موعد الساعة، ثم تحدث عن بعض أهوال يوم القيامة، ومنها: النفخ في الصور، والبعث، والميزان.

قال الشيخ: [إن كل ما قالوا في وصف الميزان وشكله لا دليل عليه](١).

قلت: ورد في ذلك آثار عن بعض السلف بأن له لسانًا.

ولم يرد ذلك في حديث مرفوع إلى النبي ﷺ سوى أن له كفتين، كما في حديث صاحب البطاقة(٢).

---

(١) تعريف عام بدين الإسلام، ص١١٠.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٣٨) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٥). وانظر: =

ثم تابع الشيخ وصفه لأهوال يوم القيامة، ومنها: شهادة الرسل، ونشر الصحف، وشهادة الأيدي والأرجل على أصحابها، والحساب، والعبور على الصراط، والجنة والنار.

المبحث الثامن: «**الإيمان بالقدر**» قرر فيه منهج أهل السنة في الإيمان بالقضاء والقدر، وأن ذلك لا يعارض مبدأ الثواب والعقاب، وأنه لا يحق لأحد أن يحتج بالقدر على ارتكاب المعاصي.

ثم يبين الشيخ أمرًا مهمًا وهو أنه يجب أن لا يدعونا إيماننا بالقدر أن نترك العمل أو أن نكسل عنه، أو نتواكل.

ثم يقول الشيخ ناقدًا مسالك الذين يعظمون القبور:

[ولما رأينا (أي رأى بعضنا) أن حياتنا كلها قد فسدت، وأن الأحياء منا قد ذلّوا، وذكرنا عزّ الأجداد وصلاحهم، تحوّل يأسنا من الحاضر إلى أمل بالماضي. وصَغَار أحيائنا إلى تعظيم أمواتنا، فنشأت من هنا مظاهر تقديس الأموات، والاعتماد عليهم، وانتظار المَدَد منهم. نظن أن نجاحهم وخيبتنا، تمكنهم من إمدادنا، فصرنا نُقِيم الأضرحة الفخمة، والقِبَاب العالية عليها، ونُبدي من التقديس لها، ما رجع بنا إلى قريب من عقائد الجاهلية، وصرنا ننذر لهذه القبور، ونتوسل بها التوسل الممنوع، وربما طلبنا من أصحابها

= شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة للالكائي (١١٧٠)، وكتاب «منهاج السلامة في ميزان القيامة» لابن ناصر الدين الدمشقي.

النفع والضرر، بلا أسباب ظاهرة، ولا واسطة ملموسة. وكل ذلك (رد فعل) لسوء حاضرنا، وجلال ماضينا][1].

المبحث التاسع: «**الإيمان بالغيب**»، أثبت فيه الشيخ وجوب الإيمان بالغيب.

قال الشيخ:

[والغيب الذي هو ركن الإيمان، والذي يكفر منكره ويخرج من ملة الإسلام، هو ما جاء في القرآن. أما الغيب الذي ورد في السنة الصحيحة، فلا يكفر منكره ويخرج من الملة، بل يفسق][2]!

قلت: هذا من أخطاء الشيخ ـ هداه الله ـ لأن السنة الصحيحة وحي من الله كالقرآن، قال تعالى عن رسوله ﷺ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[3].

فلا يجوز الإطلاق بأن من ردها لا يكفر، لأنه قد يردها تعنتاً وازدراءً بها كما يفعل (القرآنيون) ممن يَدَّعون اعتماد القرآن وحده، فهذا كفر صريح.

أما من رد السنة لاعتقاد عدم ثبوتها أو تأولها، أو نحو ذلك فهذا لايكفر.

---

(١) المصدر السابق، ص١٣٧.

(٢) المصدر السابق، ص١٤٠.

(٣) النجم: ٤.

وقد تنـــازع العلمـــاء فـــي رد خبـــر الآحاد ـ مثلاً ـ فمنهم من كفـــره، ومنهـــم من فسقـــه، ومنهـــم مـــن لم يكفره ولم يفسقه[١].

والصواب في هذه المسألة ـ والله أعلم ـ أن ذلك يختلف باختلاف الأخبار وباختلاف أحوال الأشخاص الرادين للخبر.

فأخبار الآحاد الصحيحة ليست على درجة واحدة من الصحة، ثم إن الخبر المحتفة به القرائن يختلف عن غيره مما لم يحتف به قرينة، وكذلك الخبر الذي تلقته الأمة بالقبول يختلف عن الخبر الذي اختلفوا فيه. ونحو ذلك من الفروق.

وكذلك الأمر يختلف باختلاف الأشخاص، فقد يكون الشخص مجتهداً، فيظن أن هذا الخبر الصحيح قد عارضه ما هو أقوى منه، أو أنه لم يصح عنده أو نحو ذلك من الأمور التي يعذر بها.

وقـد يكـون الشخـص معـانـداً وصـاحـب هـوى قصـده رد الأحاديث، ومخالفة ما أجمع عليه السلف لشبه عقلية تلقاها من أهل الكلام المذموم فالأمر يختلف باختلاف الأخبار واختلاف أحوال الأشخاص.

---

(١) انظر الخلاف في ذلك في المسودة (ص٢٤٥)، شرح الكوكب المنير (٢/ ٣٥٢ـ٣٥٣)، مختصر الصواعق (٢/ ٣٦٨)، لوامع الأنوار البهية (١/ ١٩ـ٢٠).

قال ابن القيم رحمه الله:

[إن من رد الخبر الصحيح اعتقاداً لغلط الناقل أو كذبه أو لاعتقاد الراد أن المعصوم لايقول هذا، أو لاعتقاد نسخه، ونحوه، فرده اجتهاداً وحرصاً على نصر الحق، فإنه لايكفر بذلك ولا يفسق، فقد رد غير واحد من الصحابة بعض أخبار الآحاد الصحيحة.. كما ردت عائشة ـ رضي الله عنها ـ حديث ابن عمر في تعذيب الميت ببكاء أهله عليه[١] وغير ذلك][٢].

فالخلاصة: في مسألة (رد خبر الآحاد) أن يقال:

[بأن من اتضحت له السنة ولو آحاداً وتحقق ثبوتها عن النبي ﷺ، ثم ردها بدون تأويل ولا شبهة، وقامت عليه الحجة فإنه يكفر، لتظاهره برد شيء مما جاء به الرسول ﷺ عن ربه، ومن رد شيئاً من دين الرسول كمن رده جميعه.

وعلى هذا فلا فرق بين الأصول والفروع في التكفير][٣].

والمغيبات التي ذكر الشيخ وجوب الإيمان بها هي:

---

(١) رواه البخاري في «كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه» (٢/٨١)، ومسلم في «كتاب الجنائز» رقم ٢٢-٢٣ (٢/٦٤١).

(٢) مختصر الصواعق (٢/ ٣٧٠)، والكلام السابق منقول عن «عقيدة الإمام ابن عبدالبر» للشيخ سليمان الغصن (ص١٢٨-١٢٩).

(٣) «أخبار الآحاد في الحديث النبوي للشيخ ابن جبرين، ص١٣١.

الملائكة، والجن، والكتب، والرسل، واليوم الآخر وما فيه من الحساب، وما بعده من الثواب والعقاب، والقدر، وما جاء في القرآن عن خلق السموات والأرض، وخلق الإنسان.

ثم رد على الماديين الذين لا يؤمنون بالغيب.

الجنة التي أهبط منها آدم ـ عليه السلام :

يرى الشيخ أن الجنة التي أُهبط منها آدم هي غير الجنة التي وعد الله بها المتقين.

يقول الشيخ:

[إن الرواية المتوارثة التي يتناقلها الأبناء عن الآباء من أقدم الأزمنة هي أن آدم وحواء لما هبطا من الجنة افترقا...]

ثم يعلق على هذا بقوله في الحاشية:

[الأرجح من قولي العلماء، أنها ليست هي جنة الآخرة الموعودة ولكنها (أي الجنة التي كان فيها آدم وحواء) جنة غيرها][١].

قلت: بل الأرجح أنهما أُهبطا من جنة الآخرة، وهو قول جماهير العلماء، وقد أطال ابن القيم في مناقشة حجج الفريقين في كتابه (حادي الأرواح)[٢].

---

(١) من نفحات الحرم ص٤٦.
(٢) ص٥٧ ـ ٥٦.

ويَفْصل في هذا الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه بأن المؤمنين يأتون إلى آدم يوم القيامة فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول: «**وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم؟**» فثبت بهذا الحديث الصحيح أنها جنة الآخرة.

المبحث العاشر: «الإيمان بالملائكة والجن»، أثبت فيه الملائكة وصفاتهم الواردة في القرآن، والجن وصفاتهم، وأن الشياطين هم كفار الجن.

الشيخ يُنكر تلبس الجن بالإنس:

ومع إيمان الشيخ بالجن وصفاتهم الواردة في الكتاب والسنة، إلاَّ أنه قد اشتهر عنه أنه ينكر جواز تلبس الجني بالإنسي، وقد ردَّ عليه الشيخ ابن باز حينها، وبيَّن له خطأ رأيه هذا ومخالفته لمنهج أهل السُّنَّة والجماعة.

قال الشيخ ابن باز: [وقد بلغني عن فضيلة الشيخ علي الطنطاوي أنه أنكر حدوث مثل هذا الأمر، وذكر أنه تدجيل وكذب][(١)].

ثم ذكر الشيخ الأدلة على جواز هذا الأمر، ثم قال: [وقد أخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان عن صفية ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم**

(١) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة (٣/ ٣٠٠).

مجرى الدم».

وروى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ في المسند جـ٤ ص٢١٦ بإسناد صحيح «أن عثمان بن أبي العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: يا رسول الله! حال الشيطان بيني وبين صلاتي وبين قراءتي، قال: «**ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أنت حسسته فتعوَّذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثًا**» قال: ففعلت ذاك فأذهبه الله ـ عز وجل ـ عني»، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن كل إنسان معه قرين من الملائكة وقرين من الشياطين حتى النبي ﷺ إلاَّ أن الله أعانه عليه فأسلم فلا يأمره إلا بخير. وقد دلَّ كتاب الله ـ عز وجل ـ وسُنَّة رسوله ﷺ وإجماع الأُمة على جواز دخول الجِني بالإنسي وصرعه إياه، فكيف يجوز لمن ينتسب إلى العلم أن ينكر ذلك بغير علم ولا هدى بل تقليدًا لبعض أهل البدع المخالفين لأهل السُّنَّة والجماعة، فالله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله][1].

المبحث الحادي عشر: «**الإيمان بالرسل**»، أثبت فيه وجوب الإيمان برسل الله، وذكر شيئًا من صفاتهم، وأن الرسول ﷺ لا يخطيء في مقام التبليغ عن الله، أما في الأمور الدنيوية الخالصة فإنه قد يخطيء لأنه يتكلم فيها برأيه لا عن وحي.

قال الشيخ:

[ولعل الحديث الوارد في الذباب إذا سقط في الإناء من هذا

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣).

القبيل، والدليل على ذلك أنه لم يقل أحد: إنَّ غمس جناحي الذبابة واجب، وإن مخالفة هذا الأمر ـ وعدم غمسه ـ حرام][١]!!

قلت: هذا من زلات الشيخ العِظَام! وهو من التقول على الرسول ﷺ بلا علم، وأنه قد يخبر الأمة بخبر يكتشفون فيما بعد خطأه! نعوذ بالله من هذا الضلال.

والشيخ قد قاس هذا الحديث على حديث (التلقيح) المشهور وهو أنه ﷺ مر على قوم يلقحون النخل فقال: «**ما أظن يغني ذلك شيئًا**» فلم يلقحوه ففسد تمرهم فأخبروه، فقال ﷺ: «**إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظنًا، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدَّثتكم عن الله شيئًا فخذوا، فإني لن أكذب على الله ـ عز وجل ـ**»[٢]، وحديث التلقيح هذا قاله الرسول ﷺ في مسألة دنيوية بحتة، ثم أخبرهم بأنه قد قاله من رأيه لا عن وحي من الله، وأما حديث (الذبابة) فهو أمر عام لجميع الأمة، وهو أمر ندب لا أمر إيجاب كما قال العلماء، وليس هو من الأمور الدنيوية التي قد يخطيء فيها رسول الله ﷺ! لأنه ﷺ لم يخبرهم بهذا، وإن كان الشيخ يجوِّز أن يكون الرسول يخبر بخبرٍ عن أمرٍ دنيوي ثم يخطيء فيه ولا يبين ذلك للأمة إلى أن يموت ﷺ، فقد ظن بالرسول أمرًا عظيمًا، وهو أنه قد خان الأمة وجعل أمور الوحي تختلط عليها بالأمور الدنيوية التي قد يخطيء فيها ﷺ! ونربأ بالشيخ أن يكون قد

---

(١) تعريف عام بدين الإسلام، ص١٦١.
(٢) أخرجه مسلم (٢٣٦١).

تصور هذه اللوازم ثم قرر رأيه ذاك.

الذي أظنه أن الشيخ لم تستسغ نفسه أن يغمس الذباب في إنائه فلذلك بادر إلى إنكاره بأسلوب مؤدب ولم يجحده كما جحده غيره من أدعياء التقدم والتنور.

ثم تحدث الشيخ عن عالمية رسالة محمد ﷺ، وعن معجزات الرُّسل وأنها حق ينبغي الإيمان به، وكذلك الكرامات الثابتة للأولياء، ثم تحدث عن معجزات محمد ﷺ.

المبحث الثاني عشر: «الإيمان بالكتب» بيَّن فيه الشيخ وجوب الإيمان بجميع الكتب السماوية، وخصَّ القرآن بالحديث عن إعجازه وبلاغته.

وبهذا المبحث ختم الشيخ كتابه، وأنا في كتابي هذا لا أستعرض مميزات هذا الكتاب الواضحة في جمال أسلوبه وعباراته وسهولة عرضه، وإنما أركز على الأخطاء التي خالف فيها الشيخ الحق، نصيحة مني للشيخ، ونصيحة لقراء كتبه أن لا يقعوا فيما وقع فيه.

نقـد عـام:

وبعد مرورنا السريع على مباحث الكتاب ومقارنته بكتب العقيدة على منهج السَّلف؛ نستطيع أن نَلْمَح الأخطاء الكبرى التي وقع فيها الشيخ، ومن ذلك:

١ ـ أنه لم يفرد مبحثاً خاصًّا لتوحيد الأسماء والصفات كما صنع

عند حديثه عن توحيد الربوبية، والألوهية.

٢ ـ أنه لم يتطرق لأسماء الله الحسنى وهي ملازمة للصفات.

٣ ـ أنه ضل في مبحث (صفات الله) فرجح مذهب التفويض مرةً ومذهب التأويل مرةً أخرى، ولم يستطع إدراك مذهب السلف.

٤ ـ أنه لم يُفصل في أمور الغيب: فلم يذكر مبحث الشفاعة وأنواعها، أو رؤية المؤمنين لربهم في الجنة.

٥ ـ أنه لم يتطرق في كتابه للحديث عن موقف المسلم من صحابة رسول الله ﷺ سواءً في تفضيل بعضهم على بعض، أو الكف عما شجر بينهم، وسلامة الصدر تجاههم، لاسيما وكتابه مخصص للشباب الذين يُخشى عليهم أن ينساقوا في هذا الباب وراء أكاذيب الروافض وشبهاتهم حول الصحابة الكرام، فكان الواجب على الشيخ أن يُحصن هؤلاء الشباب تجاه شبهات أعداء الصحابة بذكر منهج السلف في هذا الباب المهم.

٦ ـ أن الشيخ قليل الاهتمام بحديث رسول الله ﷺ، فلا تجد في جميع كتبه أي احتفاء بها! وهذا مما يُستغرب جداً، فمثلاً في كتابه السابق «تعريف عام بدين الإسلام» نجده لا يحتوي إلا على أحاديث يسيرة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة! برغم أن الكتاب يتحدث عن العقيدة الإسلامية لطائفة الشباب، وإنما اكتفى عند تأليفه بالقرآن الكريم كما يقول.

والشيخ يعلم أن كثيراً من تفصيلات العقيدة ذُكرت في السنة ولم تُذكر في القرآن الكريم، كعذاب القبر، وأنواع الشفاعة، ونزول عيسى عليه السلام، وخروج المسيح والدجال، ونحو ذلك.

ولكي لا نتهم الشيخ بأنه متأثر بالمعتزلة أو لا يرى الرجوع إلى أحاديث رسول الله ﷺ وهي تهمة عظيمة نُذكره بقوله:

[وأصل الأصول في العقائد، أن الأمور المشاهدة مرجعها الحسّ، فما أثبته الحسّ فهو واقع، ومن أنكره لم يكن عاقلاً، والأمور المغيبة مرجعها خبر الصادق فما أخبر به الله، أو وردت به السنة الثابتة التي تفيد العلم فهو واقع، **ومن أنكره لم يكن مسلماً**.

والكتاب والسنة سواء في أصل الواقع في الدلالة الشرعية، أي أن من سمع الآية من الرسول ﷺ ذاته، وسمع منه الحديث، لم يسعه أن يفرق بينهما في قوة الدلالة، إنما جاء التفريق (بالنسبة إلينا) لأن الآيات نقلت بألفاظها وحروفها نقلاً متواتراً لا شك فيه، والأحاديث أكثرها نقله آحاد عن آحاد][١].

فالشيخ يرى أن مرجعنا إلى الكتاب والسنة، ومع ذلك فإنه غير مكثر في إيراد الأحاديث في كتبه، فضلاً عن الحكم عليها وفق ضوابط مصطلح الحديث.

ومن المؤسف جداً أن الشيخ برغم هذا الضعف الظاهر في

---

(١) محمد بن عبدالوهاب، ص١٦ ـ ١٧.

علمه بالحديث نجده يؤصل أصولاً (عجيبة) وينسبها إلى أهل الحديث! فمن ذلك قوله: [من القواعد المعروفة عند أهل المصطلح: أن الرسول ﷺ لا يقول ما يناقض القرآن، ولا ما يخالف الواقع المشاهد، فإن روي حديث مناقض للقرآن، أو يخالف الواقع المشاهد، نحكم أن الرسول لم يقله، ولو روي بسندٍ صحيح][1].

والغريب في كلام الشيخ هو تناقضه! فكيف يجزم بأن الرسول ﷺ لا يقول ما يناقض القرآن ثم يتوهم أن يوجد حديث صحيح يخالف القرآن! إلا إذا كان الشيخ يجوز أن يوجد حديث صحيح لم يقله رسول الله ﷺ! وفي هذا ما فيه من طعن بأهل الحديث الذين قد يُجمعون على تصحيح حديث، وتقويل الرسول ﷺ ما لم يقله.

والصواب: الذي يجب أن يعلمه الشيخ أنه لايوجد حديث صحيح يخالف كتاب الله أبداً، لأنهما ـ أي الكتاب والسنة ـ يخرجان من مشكاة واحدة، فهما جميعاً وحي من الله لا يمكن أن يتعارض.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

[والذي يجب على كل مسلم اعتقاده أنه ليس في سنن رسول الله ﷺ الصحيحة سنة واحدة تخالف كتاب الله، بل السنن مع كتاب

---

(١) تعريف عام بدين الإسلام، ص١٣٢.

الله على ثلاث منازل:

المنزلة الأولى: سنة موافقة شاهدة بنفس ما شهد به الكتاب المنزل.

المنزلة الثانية: سنة تفسر الكتاب، وتبين مراد الله منه، وتقيد مطلقه.

المنزلة الثالثة: سنة متضمنة لحكم سكت عنه الكتاب فتبينه بياناً مبتدأً.

ولا يجوز رد واحدة من هذه الأقسام الثلاثة، وليس للسنة مع كتاب الله منزلة رابعة.

وقد أنكر الإمام أحمد على من قال: «السنة تقضي على الكتاب» فقال: بل السنة تفسر الكتاب وتبينه.

والذي يشهد الله ورسوله به: **أنه لم تأت سنة صحيحة واحدة عن رسول الله ﷺ تناقض كتاب الله وتخالفه البتة، كيف ورسول الله ﷺ هو المبين لكتاب الله، وعليه أنزل وبه هداه الله، وهو مأمور** باتباعه، وهو أعلم الخلق بتأويله ومراده؟!

ولو ساغ رد سنن رسول الله ﷺ لما فهمه الرجل من ظاهر الكتاب لردت بذلك أكثر السنن وبطلت بالكلية][(١)].

وقال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ في (الرسالة): [لا تخالف

---

(١) الطرق الحكمية (ص١٠١).

سنةٌ لرسول الله كتاب الله بحال][1].

ما سبق ـ أخي القارىء ـ هو استعراض سريع لكتاب الشيخ (تعريف عام بدين الإسلام) الذي يمثل ملخصًا لعقيدته التي يدين الله بها، وقد علمنا ما له وما عليه في هذا الكتاب.

وقد بقي بعض المباحث العقدية التي تطرق إليها في كتبه الأخرى، ومن ذلك:

عقيدة الولاء والبراء عند الطنطاوي:

يرى الشيخ ضرورة موالاة المؤمنين ومحبتهم، ومعاداة الكافرين وبغضهم، كما هو منهج السلف.

يقول الشيخ عن أستاذه النصراني فارس الخوري:

[كان أستاذي، استفدت منه، وقدرت فضله، ومدحته، ولكن كان آخر مسلم في آخر الأرض أقرب إليَّ منه!

هذا الكلام لم أقله الآن، ولكن صدعت به على المنبر من نحو ثلاثين سنة، فاستأذنني الأستاذ أحمد عسة (وكان يومًا تلميذي) أن ينشره في جريدته فأذنت، فنشرته الجريدة بالخط الكبير (المانشيت)، بالقلم العريض، وكانت إحدى مرات ثلاث، ثارت فيها جرائد دمشق كلها عليَّ وتبارت في ذمي وشتمي، وجرَّب كل ذي قلم قلمه فيَّ، أما ذنبي الذي لا يغتفر، فهو أني (كفرت) بدين

---

(١) الرسالة (ص٥٤٦).

الوطنية، ودعوت إلى الطائفية، وفرّقت بين المواطنين بسبب من اختلاف الدين، وهم يهتفون كل صباح:

بـــلاد العُـــرب أوطـــانـــي   مـــن الشـــام لبغـــدان
ومـــن نجـــد إلـــى يمـــن   إلـــى مصـــر فتطـــوان
فـــلا ديـــن يفـــرقنـــا...

لا يفرقنا الدين! أي أنهم يريدون أن نجعل الكافرين كالمسلمين، وأن ندعو بدعوة الجاهليين، ندع كلام رب العالمين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]، فننكر أخوّة الإيمان، ونتمسك برابطة اللسان، فيكون أبولهب وأبوجهل أقرب إلينا من بلال وسلمان...

كلا، ولا كرامة! قلتها من أول حياتي، وأقولها الآن.][2].

ويقول أيضًا:

[إنني أقول الآن وأنا في الثمانين من عمري ما قلته ونشرته في مطلع شبابي إن آخر مسلم في الدنيا أقرب إليَّ من فارس الخوري ومن غير فارس الخوري، ومن لا يقول هذا القول لا يكون مسلمًا، لأن رابطة الإيمان أقوى من رابطة النسب ومن رابطة اللسان، والله يقول لنوح عن ولده لما وعده الله بأن ينجي أهله، فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾[3]، فصحح له رب العالمين مقاييس

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠.
(٢) ذكريات الطنطاوي (٢/ ١٨٥).
(٣) سورة هود، الآية: ٤٥.

القرابة وبيّن له أن رابطة الإيمان أقوى من رابطة الأبوة فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾[(١)]] [(٢)].

قلت: قد أحسن الشيخ عندما قرر عقيدة (الولاء والبراء) مع الكفار، ولكنه أخطأ في قوله عن كفار أهل الكتاب:

[أما الذميون، أي المواطنون غير المسلمين في البلاد الإسلامية، فلهم ما لنا وعليهم ما علينا، ماداموا على العهد الذي بينهم وبيننا] [(٣)].

قلت: بل الصواب أن المسلم هو الذي له ما لنا وعليه ما علينا، كما قال ﷺ فيما نقله عنه سلمان ـ رضي الله عنه ـ: «... **فإن أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا**» [(٤)]، أما الكافر الذمي فلا يقال في شأنه (له ما لنا وعليه ما علينا) فإن هذه المقولة أطلقها بعض الفقهاء، وقلده فيها آخرون، وظنها بعضهم حديثاً [(٥)]! والفروق بين المسلم والكافر كثيرة جدًا ليس هذا موضع بيانها.

رأيه في الديمقراطية:

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٦.
(٢) ذكريات الطنطاوي (٨/ ١٣).
(٣) فتاوى الطنطاوي، ص٩٧.
(٤) أخرجه الترمذي (١/ ٢٩٢) وصححه الألباني في الإرواء (١٢٤٧).
(٥) وقال الألباني عنها: [باطل لا أصل له في شيء من كتب السُّنَّة، وإنما يذكره بعض الفقهاء المتأخرين ممن لا دراية لهم في الحديث].
انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة (٥/ ١٩٥).

يبين الشيخ رأيه في الديمقراطية بقوله:

[وما الديمقراطية؟

إنها كلمة واحدة من كلمتين إغريقيتين: ديموس (Demos) ومعناها الشعب، وكراتوس (Kratos) بمعنى السلطة، ونحن نقر سلطة الشعب ونعرف له حقه باختيار رئيسه، وهذا هو أسلوب (البيعة)، ولكنا لا نرى له، ولا لرئيسه، السلطة المطلقة، لأن لنا معشر المسلمين قانونًا أساسيًا، دستورًا إلهيًا، ليس لأحد من البشر مخالفته، أو تبديل أحكامه الثابتة. والأحكام في هذا الدستور ضربان: ضرب لا يتصور تبدله بتبدل الأزمنة والأمكنة، كالعدل في القضاء، والشورى في الإدارة، وقسم لا ينكر تبدله بتبدلها، وهو الطريق إلى إقرار العدل، وتحقيق الشورى، فتشكيل المحاكم ودرجاتها، والمرافعات وأصولها، وأسلوب الشورى وطريقتها، وكل ما فيه المصلحة للناس، والرفعة للوطن، ولم يرد في تحريمه نص، فلنواب الشعب أن يأمروا به ويقرّوه، وأن ينهوا عن ضده ويمنعوه.

بقي أن نسأل، كيف نختار من ينوب عن الشعب، وينطق باسمه؟ من يبحث عن مصلحته، ويبين أين توجد هذه المصلحة؟ إنهم (أهل الحل والعقد)، وليس لهم عندنا نظام محدد، ولكن كل واحد منا يستطيع أن يكتب قائمة بأسمائهم. ألا تستطيع أن تسمي ثلاثين من أهل بلدك ممن يعرف الناس أقدارهم ويتفقون على الثقة بهم، والاطمئنان إليهم، وإن قالوا استمعوا لقولهم، وإن رأوا رأيًا

رجعوا إلى رأيهم، أو علقوا عليه، وعدّلوا فيه، ولكن لم يهملوه، ولم يطّرحوه؟ من علماء الدين، ومن المربين والمعلمين، والوجهاء والمقدمين، وكل من كان من أهل الصلاح والخير: من التجار ورجال الأعمال، ومن الأطباء والمحامين، والمتقاعدين المجربين من القضاة والموظفين، وأمثال هؤلاء ممن عرف بالاستقامة والأمانة، وصحة العقل، والحرص على مصلحة البلد، وعلى رضا الله؟ هؤلاء هم (أهل الحل والعقد)، الذين يختارون الحاكم، خليفة سميناه، أم أمير المؤمنين، فليس المدار على الاسم ولكن على المسمى.

هذه هي (الديمقراطية) المبصرة. أما (الانتخابات) بصورتها التي نعرفها، فهي الديمقراطية العمياء، الحق فيها مع من هم أكثر عددًا، لا مع من هم أقوم سبيلاً وأقوى دليلاً. تُهدر فيها الكفايات، وتُعطّل المزايا، ويستوي عند (التصويت) القاضي، واللص، وإمام المسجد، وسارق الأحذية، وأستاذ الجامعة، وناطور الماخور، كل منهم له صوت، ولا يَرْجَح في الميزان صوت على صوت. فإن رأي الطبيب الجراح، أن المريض محتاج إلى عملية عاجلة، إن تأخرت مات، ورأت (الأكثرية) من الموظفين والإداريين في المستشفى، والممرضين والخدم رفض العملية، كان الحق في النظام البرلماني معهم، والرأي لهم، ولو مات المريض! وإن قرر ربان الطيارة الهبوط هبوطًا اضطراريًا، لاختلال المحرك، أو نفاد الوقود، أو سوء حال الجو، ورأت أكثرية الركاب الاستمرار في الطيران، كان الحق معهم، والرأي رأيهم، ولو سقطت الطيارة،

وتحطمت. . .

هذا هو النظام البرلماني، يضيع فيه علم المجرّب، وخبرة الخبير، ويستوي فيه الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

فإن انضم إليه ما ابتدع في بعض البلدان، من تخصيص نصيب معين من مقاعد المجلس، للعمال والفلاحين، ولو كان في المرشحين من هو أحق بالنيابة، وأقدر على حمل تبعاتها، والنهوض بأعبائها. . كان ذلك هو النزول إلى الدرك الأسفل من (نار) الإفساد. لا أقول هذا كرهًا بالعمال والفلاحين. لا وأعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، فالعامل والفلاح هما يدا الأمة، إذا كان العلماء هم الرأس الذي يفكر، وكان الأدباء هم القلب الذي يحسّ، ولا يصلح جسد بترت يداه، ولو كبر عقله، واتسع قلبه. بل لأن كل حكيم منصف، يحدد الغاية ثم يبتغي إليها الوسيلة، فإن مرض ولده لم يأخذه إلى المحامي، ولو كان أكبر محامي البلد، بل يأخذه إلى أقرب طبيب، وإن كانت له قضية في المحكمة لم يستشر الطبيب ولو كان أحذق الأطباء بل يراجع المحامي. وإن انخرق دولاب السيارة لم يفده طبيب ولا محام، لم ينفعه إلا (عامل البنشر) أي مرقع إطارات الدواليب.

فما الغاية من افتتاح المجلس النيابي، وما عمل النائب فيه؟

إن عمله وضع القوانين على ألاّ تخالف دستور البلاد، لاسيما إذا كان منزلاً من السماء، فهل يقدر العامل والفلاح على وضع القوانين، أو مناقشة مشروعاتها؟

إن الحكمة هي أن تضع الشيء في موضعه، والرجل في مكانه، وإلا كنت ممن يلبس بنطاله بيديه، ويدخل كمّي ردائه في رجليه، ويعلق حذاءه في عنقه ويمشي حافيًا..

وإن من أمارات الساعة، وعلامات اقتراب القيامة، أن يوسد الأمر إلى غير أهله وأن يكلف الرجل غير العمل الذي أتقنه، وأن يوضع في غير الموضع الذي يصلح له.

ولكنا لما فُتِنّا بهذه الحضارة العصرية، وأخذناها بكل ما فيها، حتى ولو بان عيبه، وبدا فساده، أخذنا النظام البرلماني، وكان بالإمكان تنظيم اختيار أهل الحل والعقد، ووضع القواعد والضوابط لهذا الاختيار، فلا يبقى فوضى كما هو الآن، ولا نحمل معايب هذه الانتخابات. وليت هذه الانتخابات جرت عندنا كما تجري عندهم. ما سمعنا بانتخابات تزوَّر في انكلترا أو فرنسا، فترمى صناديقها وتوضع في مكانها صناديق معدَّة من قبل، فيها أوراق ما سطرها المنتخبون ولكن أملاها الحاكمون، حتى صارت نتيجتها معروفة قبل أن تجري، ونسبة الأصوات التي نالها الناخبون، حددت قبل أن تكون الانتخابات، لاسيما في (الاستفتاء) الشعبي العام][1].

ويقــول:

[والديمقراطية عندهم هي حكم الشعب (ديموس الشعب

---

(١) ذكريات الطنطاوي (٢/ ٩٧ ـ ١٠٠).

باليونانية) ولو أجمع الشعب كله، بل شعوب الأرض مجتمعة، على إحلال حرام، أو إلغاء واجب، لم يكن لهذا الإجماع وزن، ويبقى الحرام حرامًا، والواجب واجبًا، فالديمقراطية مقبولة على ألاَّ تجاوز حكم الله، ولا تتعدى حدوده][١].

قلت: والأفضل من هذا أن نقيم حكمنا على الشورى الإسلامية بدلاً من السير وراء تقليعات الغرب.

وفي ظني أن الذي حدا كثيرًا من دعاة الإسلام إلى الرضا بالديمقراطية ـ ولو مؤقتًا ـ هو فرارهم من الدكتاتورية التي ضجت بها أراضي المسلمين، فهم يفرون من عظيم الشر إلى قليله، ولكن الأولى من هذا كله السعي إلى حكم الإسلام المرتكز على الشورى العادلة، لأن هذه الديمقراطية قد جُربت في بلادنا فلم تنجح، لأنها مخصصة لفوز أعداء الإسلام، أما أهل الإسلام فلا مكان لهم فيها، وإن قُدِّر أنهم فازوا فمدرعات الجيش بالانتظار!!

---

(١) تعريف عام بدين الإسلام، ص٩٤.



الطنطاوي والبدع والمبتدعة

الطنطـــاوي والبدع والمبتدعة

ينكر الشيخ البدع، ويدعو إلى اتباع منهج السلف الصالح، ويرى أن البدع تكون في الأمور الدينية لا الدنيوية، وإليك شيئًا من أقواله:

يقول الشيخ:

[كنا نقدر السلف، ربما زدنا في تقديرهم عن الحد، ولا أزال أحفظ كلمة تلقيناها من مشايخنا:

وكل خير في اتباع من سلف   وكل شر في ابتداع من خلف

الاتباع وترك الابتداع، في العقائد وفي أصول الدين، لا في أمور الدنيا. فأمور الدنيا لنا، نأخذ منها كل حق وندع كل باطل، ونتمسك بكل نافع وننبذ كل ضار، جديدًا أم قديمًا، فما العبرة بالجدة ولا بالقدم. شرقيًا كان أم غربيًا، فالحق يعرف بأنه حق، لا بالجهة التي جاء منها][١].

ويقـــول:

[وخرجنا نتجول في البلد (في القريات)، فرأيناها كلها في جولة واحدة، ورأيت المساجد (في السعودية) أول مرة، والمساجد تتفاوت في جمال بنائها وزخارف جدرانها، والفن في منبرها

---

(١) ذكريات الطنطاوي (٧/ ٨٦).

ومحرابها، واختلاف أشكال مآذنها، وهذا كله من البدع، وهو جميل رائع بمقياس الفن، ولكنه مكروه مذموم بمقياس الدين، لأن كل ما يشغل المصلي في صلاته عن الله، مخالف لما شرع الله، والمساجد في السعودية (ما رأيته منها سنة ١٣٥٣) خالية منه، فهي دانية السقوف، يقوم سقفها على عمد كثيرة، متقاربة من جذوع النخل، أو من اللبن، وأرضها مفروشة بالرمل، لا سجادة ولا بساط ولا حصير.

ولما سألنا عن سر ما رأيناه عجبوا من سؤالنا، وكأنهم استخفونا واستجهلونا، لأن من المقرر عندهم (أو عند عامتهم) أن هذه هي سنة السلف، وأن المساجد لا تفرش.

وأنا رجل سلفي بحمد الله من قبل هذه الرحلة، ولكني لست «ظاهريًا» أتمسك بحَرْفِيَّة النص، وأحبس نفسي في حدود الألفاظ، وأنا أعلم أن الأصل في المسجد في بنائه وفرشه البساطة (البساطة بالمعنى المتعارف لا المعنى اللغوي)، فلما كانت أرض البيوت أو أكثرها من التراب، كانت المساجد كذلك، أما أن نتخذ لبيوتنا أغلى السجاد العجمي، وأثمن الستائر، وأفخم الفرش، ولا ندخلها بالأحذية المتربة الوسخة، وأن نمسح عنها الغبار، ثم نجعل أرض المسجد من التراب، وأن نقعد عليه بأبيض الثياب، وأن ندوس عليه بالأحذية، ـ وإن كانت الصلاة بها مشروعة ـ، وأن نضع أحذيتنا حيث يضع المصلون جباههم فتؤذيهم وتكسر نفوسهم،

فلا!][١].

ويقـــول:

[إن اختلاف صور رمضان في تلك البلدان جاء مما ابتدع الناس وأحدثوه، فالدين واحد، والصورة الأصلية، صورة مجتمع الصحابة الذي كان يشرف عليه ويهديه سيد البشر محمد ﷺ، لو بقي المسلمون عليها لما اختلفوا، ولكنهم ابتدعوا بدعًا ألصقوها بالدين، وجاء العلماء فكشفوا تلكم البدع، وهذا معنى الحديث: **«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل قرن من يجدد لها دينها»**، يجدده كما يغسل المرء ثوبه من الأوساخ فيعود جديدًا كيوم اشتراه، فالتجديد المراد هو هذا، لا أن يأتي بدين جديد غير ما جاء به رسول الله ﷺ][٢].

ويقـــول:

[جاء المملكة من قريب عامل ممن تعلم هذه الصنعة اسمه (فلان العقاد) ـ نسيت اسمه الأول ـ وهو يعمل في الرياض ومعه لوحة صنعها باعها بألف ريال! فابحثوا عنه، واستقدموا زملاءه، واستفيدوا منهم فيما تقيمون من عمارات، تريدون لها الزخرف والجمال، ولكن ابتعدوا عن المساجد، فالمساجد ليست معارض فن، ولكن محاريب عبادة، لذلك يكره فيها كل ما يشغل المصلي عن صلاته لاسيما إن كان في جدار القبلة. أمور الدين يا سادة

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٨٢ ـ ٨٣).

(٢) المصدر السابق (٣/ ١٢٠).

مردّها إلى ما أوحى به الله وبلَّغه الرسول، لا إلى ما يراه المفكرون، ولا إلى أذواق أهل الفنون][١].

ويقول في مذكراته:

[فإذا اجتزنا الجسر على فرع النيل الصغير لم نذهب قدمًا إلى الجسر الآخر على فرع النيل الكبير، فنبلغ الجيزة بل ننعطف فتكون الدارات «أي الفيلات» عن أيماننا والنيل الصغير عن شمائلنا حتى نبلغ (المندورة) وهي شجرة ضخمة من تلك الأشجار التي وصفتها، ولكنها منفردة وحدها، نائية عنها، قائمة على الشط الآخر كلها خرق معقودة على أغصانها ذلك أنها مقدسة عند العامة ينذرون لها النذور، ويطلبون منها المطالب، كأن لم ينزل جبريل بالتوحيد الخالص على محمد ﷺ، وكأن لم تنته أيام الجاهلية الأولى، حتى بلغنا دار مجلة «الفتح» والمطبعة السلفية، وفوقهما دار خالي][٢].

ويقول عن بدعة المحمل التي كانت تقام قديمًا، ثم أبطلت في عهد الملك عبدالعزيز:

[والمحمل بدعة ما لها أصل في الدين، ما أدري متى وجدت: هودج على شكل هرم مربع الأضلاع يوضع على ظهر الجمل، منقوش نقشًا مزخرفًا فيه آيات وفيه عروق بألوان مغريات، ولا يزال محفوظًا في المتحف الوطني في

(١) المصدر السابق (٢/ ١٢٧ ـ ١٢٨).
(٢) المصدر السابق (٧/ ١٢٧).

الشام](١).

ويقول عن المولد النبوي الذي تقام لأجله الكثير من الاحتفالات في أرجاء العالم الإسلامي، بدعوى محبة الرسول ﷺ:

[وهذه الاحتفالات إذا ادعى مُدَّعٍ أنها من الدين وأنها قربة إلى الله، قلنا له: لا. لأن الرسول ﷺ بلّغ الشريعة كلها، ولم يترك بابًا ندخل منه إلى رضى الله إلا دلَّنا عليه وفتحه لنا، ومن ادعى أن إقامة هذا الاحتفال، وهذه الخطب، وهذا التذكير، في يوم المولد أفضل منه في غيره قلنا له: لا. لأن الأيام لا يفضل بعضها بعضًا إلاّ بدليل شرعي، وحكم هذا الاحتفال، أنه إن كان من باب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، ونشر العلم، فهو مطلوب في كل وقت غير أن تخصيصه بيوم معين ـ وإذا ادعى أن إقامته في هذا اليوم أفضل من إقامته في غيره ـ كان ذلك بدعة](٢).

ويقـــول:

[كنت في سنة ١٩٤٣ اقترحت على الصديق الكبير جميل بك الدهان، مدير الأوقاف العام، ولم تكن الوقاف قد صارت وزارة، أن يدع هذا الاحتفال الذي يقام في الجامع الأموي يوم المولد، فيُتلى فيه كلام مكذوب على رسول الله ﷺ، وتنشد فيه أناشيد أيسر

(١) المصدر السابق (٤/ ٢٤٣).
(٢) المصدر السابق (٤/ ١٤٧).

ما فيها الغزل بالرسول، ووصف جماله، وذكر وصاله، وأشياء من هذه البابة، كلها سوء أدب مع الرسول وقلة حياء، لا يقال مثلها لشيخ الضيعة، فما بالك بسيد البشر وأفضل ولد آدم؟ وفيها ما هو أشد من هذا، وهو الشرك الظاهر، من دعاء الرسول، وإطرائه، حتى نصفه بما لا يوصف به إلا الله. وكل ذلك بحضور كبار الفرنسيين، الذين يصعدون السلم الدوار، ويقعدون في السدة العُليا من الجامع، ويسمعون هذا كله، ثم يرون هجوم الناس على قراطيس الفستق (الملبس)، يتخاطفونها، ويتزاحمون عليها، في منظر لا يستطيع أعدى عدو لنا أن يهجونا هجاءً عمليًا بأكثر من وصفه، وهم يصورون ما يريدون.

فأخذت صديقي أنور العطار ـ رحمه الله ـ، وكان يمشي معي حيثما مشيت، وذهبنا إلى جميل بك، رحمة الله عليه، فقلت له: أتحب أن تعمل عملاً يرضى به عنك الله ويحمدك به الناس؟ قال: نعم، وكنت أعرفه من قديم عن طريق خالي محب الدين الخطيب، لما كان متصرفًا (أي محافظًا) لمنطقة حمص. أعرفه مسلمًا متمسكًا بإسلامه.

فلما قال نعم، قلت: تبطل هذا كله، وتأتي بشيخ القراء يفتتح الاحتفال بآيات من كتاب الله، ثم ألقي أنا كلمة، وأنور قصيدة، فيكون من ذلك احتفال خالٍ من تلك المنكرات.

قال: إن الناس لا يرضون بغير قراءة المولد وأنا أريد الإصلاح، ولكن لا أستطيع أن أُثير الناس وأن أغضب الرئيس،

قلت: فليقرأ الشيخ الكزبري التعطيرة الأخيرة من المولد المعتاد، ثم ينشد السيد توفيق المنجد قصيدة نختارها نحن له، في مدح رسول الله ﷺ، لا يكون فيها شيء يخالف الإسلام][1].

موقفه من فِرق المبتدعة:

وأما عن موقف الشيخ من فِرق المبتدعة التي يعج بها العالم الإسلامي، فإنه لم يتطرق لكثير منها حيث يدعي أنها قد انقرضت! فهو يقول:

[لقد تبدلت طرق الهجوم على الإسلام فوجب أن نجدد طرق الذب عنه ودفع الأعداء عن حماه، إنه لم يعد ينفعنا أن نرد **على الفرق التي بادت وفنى أهلها**، ولم يبق منها إلا ما روي في الكتب من عقائدها، وأن نشتغل بالمذاهب الجديدة التي تكيد للإسلام كيدًا أشد من كيد الأولين][2].

قلت: نسي الشيخ أن لكل قوم وارثًا، وإن لم يتسمَّ بالاسم القديم، فهاهم مثلاً العقلانيون من أمثال أحمد أمين والغزالي ومحمد عمارة وغيرهم يحيون فكر المعتزلة القديم، ويبعثونه من رقاده. وهاهم الخوارج لازالوا يعيشون في عصرنا.. وهكذا غيرهم، وردود السلف على أسلافهم ـ لمن تأمل ـ هي مناسبة للرد على خَلَفهم، فالشُبه والبدع واحدة لم تتغير.

---

(١) المصدر السابق (٧/ ٢٩ ـ ٣٠).
(٢) المصدر السابق (٨/ ٢٢١).

لم يذكر الشيخ من أهل البدع إلا الرافضة والصوفية[1]، وقد خصَّ الصوفية بكلام كثير بحكم نشأته، وخبرته بهم.

موقفه من الرافضة:

أما الرافضة فهو يراهم أصحاب بدعة لا يمكن التقارب معهم، وهذا مما يُشكر للشيخ حيث لم ينساق وراء دعايات أصحاب التقريب، وفي ظني أن قرابته لمحب الدين الخطيب الذي كان سيفًا مصلتًا على الروافض هي السبب في هذا الموقف للشيخ.

يقول الشيخ:

[جاء مصر رجل اسمه القمي، إيراني شيعي حاذق، ذكي، داهية من الدواهي، ففتح «دار التقريب» يدعو فيها إلى التقارب بين الفريقين السُّنَّة والشيعة، **وهو في الحقيقة داعية إلى التشيع**، وفي مصر ميل إلى آل البيت لعله باقٍ من أيام العبيديين الذين تسموا كذبًا بالفاطميين، وما لهم بفاطمة ـ رضي الله عنها ـ صلة ولا يربطهم بها نسب، ولا لهم إليها سبب. برئت فاطمة الزهراء منهم ومن كفرهم.

---

(١) وأثنى على المعتزلة بعبارة موجزة، فقال عنها بأنها [طائفة مظلومة]! وأنه قد [نُسب إليها ما لم يكن منها] كما في كتابه «رجال من التاريخ، ص١١٨ـ١٩٩» الطبعة الخامسة. ثم تراجع عن بعض هذا الثناء في الطبعات اللاحقة، وخفف من غلوه، بقوله [والمعتزلة طائفة ربما تكون مظلومة]! انظر: «رجال من التاريخ ص١٥١) الطبعة الثامنة.

أهل مصر يحبون آل البيت حبًا قد يصل أحيانًا إلى الغلو، تراه عند قبر الحسين وما يصنعون عنده، والحسين رأسه في المشهد المعروف باسمه في جامع بني أمية في دمشق، وجسده موسد ثرى كربلاء في العراق، وما منه في مصر شيء. ولست أنا قائل هذا الكلام، فتُوَجَّه إليَّ السهام، ويُلقىٰ على عاتقي الملام، ويُجَرَّد في وجهي الحسام، ولكن قائله بل كاتبه الذي أيَّده بالدلائل، وأقام عليه البينات، شيخ الإسلام ابن تيمية. فمن غضب منه فليرد على الشيخ لا عليَّ، فما لي في الأمر ناقة ولا جمل، ولا لي فيه سخلة ولا حمَل.

وما يصنع الناس عند قبر السيدة زينب، وما في مصر من مشاهد منسوبة إلى أهل البيت. وكلنا يحب أهل البيت، الذين قال الله لهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[1]، وإن كان المراد الأول هنا بأهل البيت أمهات المؤمنين، الذين وُجِّهَت الآية إليهنَّ، وصُدرت بندائهن: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾[2] وهذا الكلام أيضًا ليس من عندي، بل هو كلام ابن حزم العظيم، الذي كان (لولا ظاهريته) المفرد العلم.

أراد الزيات أن نزور هذا القمي أنا وهو وأخي الأستاذ سعيد الأفغاني. وكان ينويها زيارة مطارحة ومجاملة، ونويناها (أنا

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.

وسعيد) زيارة مصارحة ومجادلة، وكان عنده العالم الأزهري الكبير الشيخ محمد عرفة، فخرقنا جدار الصمت (على وزن قولهم عن الطيارة خرقت حجاب الصوت) وسألنا القمي لماذا جاء إلى مصر ففتح دار التقريب فيها، وكان أولى به أن يفتحها في طهران لأن الفرع الذي أنبت يرد إلى الأصل، ومن خرج عن الجماعة يعود إلى الجماعة، والقمر الصغير الذي انفصل عن الجرم الكبير إن لم يرجع إليه دنا منه فدار حواليه، وما عهدنا في الفضاء قمرًا صغيرًا يجذب جرمًا كبيرًا.

فأراد الشيخ عرفة أن يرش الماء البارد على الجمرة التي بدأت تتقد، وأن يلطف الجو فقال: إن الخلاف على مسائل الفقه أمرها هيِّن، قلت: بل الخلاف يا سيدي على أمور من أصول الدين وأنت تكلم رجلاً عاش في العراق سنين مدرسًا في ثانوياتها، من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٩، تنقل من البصرة إلى جنوبي العراق إلى شماليها، فقرأ كتب القوم، وناظر مشايخهم، وعرف ما عندهم][١].

ويقول الشيخ عن (نواب صفوي) الشيعي الجلد الذي قُتل في حكم (الشاه) والذي أُولع الكثير من دعاة (الحركة الإسلامية) ـ لاسيما جماعة الإخوان! ـ بالثناء عليه، واعتباره من الشهداء!

---

(١) ذكريات الطنطاوي (٧/ ١٣٢ ـ ١٣٣).

يقول الشيخ عن هذا الرافضي الذي كاد أن ينخدع به:

[قلت لكم في الحلقة الماضية أنهم انتدبوني أنا والأستاذ كامل الشريف، لما حكم على أخينا[١] نواب صفوي بالقتل، أن نذهب إلى طهران فنسعى للعفو عنه أو للرفق به. لما بلغنا بغداد منعونا دخول إيران، وكأنهم كرهوا أن نذهب إلى النجف فنجتمع بعلمائها، لنتعاون معهم على ما جئنا نسعى إليه، فقدمت جماعة كبيرة من علماء الشيعة إلى بغداد، واجتمعنا في مسجد الكاظمية فقلت لهم: إن نواب صفوي أنتم أولى به، وإن قضيته قضيتكم، وإنه، وإن لم يكن بعيدًا منا، أقرب إليكم، فاعملوا ونحن معكم، وقلت لكم ما استطعنا أن نصنع شيئًا، وأن سهم القضاء قد نفذ فيه فمات، رحمة الله عليه[٢].

وقد يسأل سائل: من أين عرفت نواب صفوي؟ لقد سمعت أخبار جماعته الفدائية، تلك الأخبار التي ملأت الصحف في تلك الأيام، وما كان يعمل أعضاء «فدائيان إسلام»، فلما قرأت اسمه بين أعضاء المؤتمر كرهت لقاءه، وخفت أن يكون كما قالوا مغرقًا في شيعيته فيقع بيني وبينه جدال ربما أساء إلى المؤتمر، وأبعده عن بلوغ الغاية التي يسعى إليها، فلما لقيته وجدته شابًا صغير السن بهي الطلعة، لطيفًا، بعمامة أظن أنها كانت سوداء، وجُبة سابغة، ولما كلمته وجدته متأدبًا يحترم الكبير، ويستمع النصيحة،

---

(١) لا يجوز إطلاق (الأخوّة) على الروافض، أو محبتهم. وهذه زلة من الشيخ.

(٢) !!

فخضت معه في الموضوع الذي كنت أخشاه، **فوجدته كما كنت أقدر غاليًا في شيعيته**، ولا يأتينا الضرر، ولا يقع بيننا الخلاف إلا من أصحاب الغلو والتشدد، فصرت أبيِّن له ما أرى أنه الحقيقة. فكان يصغي إليَّ ويقبل ما يقوم الدليل على أنه صحيح من كلامي، فلما لمست طيب قلبه، وإخلاصه وحبه للوصول إلى الحق، كدنا نتفق على كثير من المسائل التي يختلف فيها من كان في مثل موضعه وموضعي، ثم صار يكثر الاجتماع بي، ويمشي معي، ولنا صور كثيرة في المؤتمر وفي المسجد الأقصى بالقدس، ثم في عمان في دار صهري الأستاذ عصام العطار لما كان في عمان، **وأقول لكم إنني أحببته!** لما لمست فيه من كريم الصفات][1].

ويقول الشيخ معرِّضًا بالروافض:

[من اعتقد من أتباع الفرق المنسوبة إلى الإسلام أن الذي في المصاحف ليس القرآن كله، وأن من القرآن ما ليس في المصاحف التي يتداولها المسلمون، **كفر وخرج من ملة الإسلام**، إلا ما كان من الآيات التي قال قوم إنها منسوخة التلاوة، ولم يثبت ذلك بخبر متواتر][2].

موقفه من الصوفية:

أما موقف الشيخ من الصوفية فإنه كما علمنا قد نشأ صوفيًا

---

(١) المصدر السابق (٥/ ١٤٩ ـ ١٥٠).

(٢) تعريف عام بدين الإسلام، ص١٤١.

ثم انتقل إلى السلفية بحكم علاقته بخاله السلفي محب الدين الخطيب، وشيخه العلامة محمد بهجة البيطار، فلذا نَبَذَ الصوفية بعد أن كادت تُنشب فيه أظفارها.

يقـول الشـيخ:

[الذي أعتقده في مسألة الصوفية، أن لموضوع التصوف أصلاً أصيلاً في الدين، لأن الدين ما جاء لأعمال الجوارح فقط، بل للنيّات والمقاصد والقلوب، ومن صلى الصلاة الكاملة في قيامها وقعودها، وركوعها وسجودها، ولم تكن نيته بها وجه الله، بل الرياء والخداع، لم يكن لها عند الله وزن. فإن كان المراد من التصوف هو تصحيح النيات، ومداواة أمراض القلب، وإصلاح السرائر، كان لبّ الدين بشرط الوقوف فيه عند حدود الكتاب والثابت من السنة، كما كانت الحال في القرن الأول والثاني، ثم أحدث (التصوف) المعروف وصارت له رسوم خاصة واصطلاحات فاختلط فيه الصحيح بالفاسد، والحسن بالسيء، فما كان من (وحدة الوجود) و(مسألة الأقطاب والأوتاد) و(دعوة التصرف في الكون) ودعوة أن للدين ظاهرًا وباطنًا، فالظاهر هو الشرع والباطن هو الوساوس والخطرات التي تعرض لأصحاب الرياضات، وتفسير القرآن بها تفسيرًا لا يؤيده أثر ولا تحتمله اللغة، وأمثال ذلك فهو مردود، وليس من الإسلام.

أما الكلام في أشخاص بأعيانهم كمحيي الدين بن عربي وابن الفارض والشعراني وعبدالغني النابلسي، فأنا لا أحكم على

الأشخاص بكفر ولا إيمان، لأني لا أعرف ما ختم الله لهم به، والله لم يكلفني البحث عنهم، والحكم عليهم، ولست مع من يكفرهم ولا من يجعلهم أئمة في الدين، ولكن أقول: إن في الكتب المأثورة عنهم المنسوبة إليهم كفرًا صريحًا، بل إن ما فيها شر أنواع الكفر وأخبثه على الإطلاق، فمن كان يقول به ويعتقده كان كافرًا][1].

ويقول عن رقصهم:

[أما هذا الذي يسمونه ذِكرًا، ويستحلون فيه السماع والرقص، فإنا فيه على مذهب الحنفية، وقد قرر ابن عابدين في الحاشية حرمته، وروي أن من استحله يكفر][2].

ويقول الشيخ في الرد على الصوفي (محمود الغراب) الذي ألَّف كتابًا في الرد على شيخ الإسلام ابن تيمية!

[من أخطر ما جاء به الصوفية أنهم جعلوا الدين دينين: جعلوه شريعة وحقيقة، فالشريعة عندهم كما فسَّرها صاحب هذا الكتاب أحكام محدودة وضيقة، والحقيقة هي المجال الواسع، وهي الطبقة الأعلى، مع أن الله إنما أنزل جبريل على محمد ﷺ بالقرآن الذي هو الشريعة، والرسول ﷺ بلَّغ أصحابه القرآن، وما جاء به من بيان لم يصدر إلا عن وحي من الله وهو السُّنَّة

---

(١) محمد بن عبدالوهاب، ص٢٣، ٢٤.

(٢) المصدر السابق، ص٢٥.

الصحيحة، فالكتاب والسُّنَّة هما الدين وما خالفهما ليس من الدين][1].

ويقول - أيضًا -:

[التصوف إذا كان المراد منه كما يقول أوائلهم ممن كان أيام الجنيد وقبل الجنيد: إذا كان مقيدًا بالكتاب والسُّنَّة كما جاء مثلاً في كتاب «مدارج السالكين» لابن القيم، إذا لم يخالف نص الكتاب والسُّنَّة الصحيحة وكان يؤدي إلى تصفية النفس والبُعد عن الرياء وتصحيح الإيمان، فنقبله ولو سميناه بهذا الاسم الغريب علينا، اسم التصوف. كلمة الصوفية على الصحيح من أصل يوناني، وليست كلمة عربية، لكن ما انتهى إليه المتصوفة من القول بوحدة الوجود، وما دعوة (الحقيقة المحمدية) والقول بأن الدين منه ما هو شريعة ظاهرة، ومنه ما هو حقيقة، والشريعة مردها إلى الكتاب والسنة، والحقيقة مردها إلى الأذواق والخواطر والخيالات، ولو كانت خيالات الحشاشين وأوهام السكارى، وما أدى إلى القول بالقبطانية وما جاء به الشعراني في كتابه «الطبقات الكبرى» مثلاً، فهذا كفر لا شك فيه، ومن شك في أنه كفر يكون كافرًا][2].

وقال - أيضًا -:

[ما زعمه بعض المتصوفة، ومانسبوه إلى رابعة العدوية من

---

(١) فتاوى الطنطاوي، ص٨١.

(٢) المصدر السابق، ص٨٤.

أنها قالت: ما عبدت الله طمعًا بجنته ولا خوفًا من ناره، وظنوا أنه من كمال الإيمان ما هو إلا كلام فارغ، لأن الملائكة يخافون الله ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾[1]. والرُّسل والأنبياء وصالحو المؤمنين يرجون رحمته ويخافون عذابه، والله قال لنا: ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[2]][3].

تعقيب:

بعد أن علمنا أن الشيخ من أنصار محاربة البدع وذم أهلها، كالصوفية والروافض ونحوهم، إلا أنه صدرت منه في هذا الباب زلتان:

إحداهما: تساهله في باب تعظيم الآثار.

والأخرى: ثناؤه على بعض رموز البدع.

أما الأولى: فمن ذلك قوله:

[أنا مولع بالوقوف على الآثار، لأني أحس أمامها كأني عشتُ عمري وعمر غيري][4].

ويقـول:

[لما صعدت جبل حراء سنة ١٩٥٧ وكان فيَّ بقية من الشباب

(١) سورة الرعد، الآية: ١٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.
(٣) فتاوى الطنطاوي، ص٢٩٤.
(٤) ذكريات الطنطاوي (٤/ ٢٥).

كان الدليل يطأ الصخر وطء متعسف جبار ويدحرج الحجارة بقدميه، فصرخت به: ترفق ويحك! فإن هذه الصخور قد سمعت يومًا أول كلمة من حديث السماء في أذن الأرض، إنها شهدت أول آية في كتاب الله، الذي هبط به سيد الملائكة جبريل، على سيد البشر محمد، لقد انقطع بريد السماء مذ مات محمد، ولم يبق من شهودالوحي إلا هذه الشعاف، وهذه الأصلاد.

على أننا لا نقدس جبلاً ولا نعبد حجرًا، حتى الحجر الأسود نُقَبله امتثالاً لأمر الشرع ونعلم أنه حجر. والأنصاب في منى نرميها امتثالاً لأمر الشرع ونعلم أنها حجر، وما عظمنا الأول لذاته، ولا حقرنا الثاني لذاته][1].

ويقول عن مقبرة البقيع بالمدينة النبوية:

[انتصرتَ أيها البقيع. فما وفيت ولا أُنصفت.. جاءك الأبطال الذين فتحوا الدنيا. ونشروا راية العدل على الأرض. وأضاؤوا طريق الهدى للناس. ليستريحوا في أرجائك، ويناموا في حماك. فحرمتهم قبرًا يعرف لهم، وحجرًا تكتب عليه أسماؤهم.

ما نريد منك أن تنقش على قبورهم آيات التبجيل والثناء فإن لهم من أسمائهم الكبيرة غنية عن كل تبجيل وثناء. لكنا نريد ألا تنسى هذه الأسماء][2].

---

(١) المصدر السابق (٣/ ١٣٥ ـ ١٣٦).

(٢) من نفحات الحرم، ص٤١.

ثم يعلق في الحاشية قائلاً:

[ولا نريد أن تقام لهم هذه (المقامات) التي ترتكب عندها أنواع المعاصي ويؤتى فيها المنكر. فنحن من أشد الناس لهذا إنكارًا][(١)].

ويقــول:

[إذا سَمَتْ بأمين العاصمة المقدسة همته، وأعانه شبابه والحكمة التي ورثها من أبيه معالي الأخ الشيخ محمد عمر توفيق، إذا أراد ما هو أكمل من هذا أعد في دار الأمانة بهوًا يكون متحفًا صغيرًا، يعرض فيه جبال مكة وواديها قبل أن يرفع فيه سيدنا إبراهيم القواعد من البيت وابنه إسماعيل، واللوحة الثانية أو الخريطة المجسمة الثانية للكعبة كما أقامها إبراهيم: بناء يعلو نصف علو الكعبة اليوم، تشمل نحو نصف الحِجْر، لها زاويتان (ركنان) من جهة الجنوب وشبه دائرة من الشمال، لها بابان لاصقان بالأرض، وليس حولها بيوت، والثالثة للكعبة قبل قصي والبيوت بعيدة عنها وحولها أرض فضاء، ثم ما كانت عليه بعد قصي وحولها المطاف، أي فناء الكعبة والبيوت محيطة بها، لا تعلو مثل علوها بل هي أخفض منها، وبين البيوت مسالك توصل إليها، ولوحات أو مجسمات لمكة تبين تطورها، وتظهر في كل عهد الأماكن التاريخية فيها، كدار أبي طالب ودار الندوة، وموقعها

(١) المصدر السابق، ص٤١.

اليوم وسط المسجد الحرام، ودار أبي سفيان، وما أظن أن أحدًا يفتي بأن الشرع يحرم ذلك، لأنه لا يخطر اليوم على بال أحد أن يقدس هذه الآثار تقديسًا يفضي به إلى عبادتها، أو تعظيمها التعظيم المطلق الذي هو من مظاهر العبادة. والعبادة بجميع طرقها، وكافة مظاهرها لله وحده، وروح العبادة الحب المطلق، والخوف المطلق، وألاَّ تطلب ما لا يدرك بالأسباب المادية، من غير وضع هذه الأسباب، وأن تعلم أن الذي بداية المخلوقات كلهم منه، ومرجعهم جميعًا إليه، هو الله، هو الرب الخالق الحافظ، وهو الملك القادر المتصرف، وهو الإله الذي لا يعبد معه سواه، ولا يستحق العبادة غيره، وأن تؤمن بكل ما نزل به وحيه على رسوله، لا تنكر شيئًا منه ولا ترده ولا تؤمن بشيء يخالفه ولا تقبله][1].

قلت: في هذا الباب تساهل الشيخ كثيرًا عندما طالب بتعظيم الآثار تحت دعاوى تذكير المسلمين بماضيهم، ونسي أن هذا التعظيم والاهتمام بالآثار هو باب عظيم من أبواب الشرك، وإذا كان هو لعلمه واتزان عقله لم يخطر هذا بباله، فإن الجهلة من المسلمين ـ وما أكثرهم ـ سيتخذون مثل هذا العمل وليجة إلى البدع والشركيات، وستتطور الأمور رويدًا رويدًا إلى أن تصل إلى ما لا يحمد عقباه.

---

(١) ذكريات الطنطاوي (٣/ ١٤٣ ـ ١٤٤).

يقول الشيخ ابن باز ـ حفظه الله ـ:

[إن تعظيم الآثار لا يكون بالأبنية، والكتابات والتأسي بالكفرة، وإنما تعظيم الآثار يكون باتباع أهلها في أعمالهم المجيدة، وأخلاقهم الحميدة، وجهادهم الصالح قولاً وعملاً، ودعوة وصبرًا، هكذا كان السلف الصالح يعظِّمون آثار سلفهم الصالحين، وأما تعظيم الآثار بالأبنية والزخارف والكتابة ونحو ذلك فهو خلاف هدي السلف الصالح، وإنما ذلك سُنَّة اليهود والنصارى ومن تَشَبَّه بهم، وهو من أعظم وسائل الشرك، وعبادة الأنبياء والأولياء كما يشهد به الواقع، وتدل عليه الأحاديث والآثار المعلومة في كتب السُّنَّة، فتنبه واحذر][1].

قلت: وأيضًا أخطأ الشيخ بمطالبته بالكتابة على القبور وهو يعلم نهي النبي ﷺ عن ذلك[2].

ثناؤه على بعض المبتدعة:

وأما الثانية وهي ثناؤه على (بعض) رموز المبتدعة، فمن ذلك قوله في أبي حامد الغزالي بأنه: [أعظم مفكر إسلامي][3]!

وأنه [أحد أفذاذ المفكرين في العالم كله][4]!

وتفضيله على شيخ الإسلام ابن تيمية!! وذلك في قوله:

---

(١) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة (١/ ٣٩٥ ـ ٣٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (٣/ ٦٢).

(٣) فتاوى الطنطاوي، ص٢٩٦.

(٤) رجال من التاريخ، ص٢٢٤.

[هذا هو الغزالي، والفكر الإسلامي من خمسين سنة إلى اليوم مطبوع بطابع شيخ الإسلام ابن تيمية، ولكنه بدأ يعود إلى طابع الغزالي كما كان من قبل، وكلاهما عظيم ولكن الغزالي أعظم في عالم الفكر، وعالم البيان، وابن تيمية أقرب إلى الكتاب والسنة، وإلى ما كان عليه السلف.

رحمة الله عليهما، وعلى كل من وضع لبنة في هذا الصرح العظيم، صرح الفكر الإسلامي][1].

قلت: فات الشيخ أن الغزالي هذا هو أحد الذين أشغلوا الأمة الإسلامية في مجادلات كلامية، كانوا في غنىً عنها بسبب مواقفه المتقلبة، وكتبه المثيرة للجدل، ككتاب (إحياء علوم الدين)، ومن تأمَّل سيرة الغزالي يجد أنه لم يُفِد الأمة الإسلامية فائدةً تذكر سوى في بعض المباحث اليسيرة في كتابه السابق التي تدور حول التربية وتزكية النفس.

وأما في العقيدة: فالرجل متذبذب بين الأشعرية والصوفية.

وأما في الحديث: فبضاعته فيه مُزجاة، كما يقول هو.

وأما في الفقه: فهو شافعي مقلِّد.

وأما في الجهاد: فلا دور له إلا بث روح التواكل بين الأمة حتى وصل الأعداء إلى عقر دارهم.

---

(١) رجال من التاريخ، ص٢٢٤، ٢٢٥.

فلا أدري بعد هذا سرّ إعجاب الشيخ به، أم أن للنشأة الأولى دورها في ذلك؟

ثناؤه على الكوثري:

يقول الشيخ:

[سألني سائل: هل قرأت على الكوثري الذي قلت عنه (أستاذنا)، وهل أنت معه في كل ما كتب؟

والجواب: لا، ما قرأت عليه، ولكن قلت عنه أستاذنا لأني استفدت من علمه ولأنه كان السبب في طبع (رسائل الإصلاح) وهي أول ما كتبت، ولست معه في كل ما كتب، ولا مع غيره، أنا لا أمشي مع أحد قط، مغمض العينين، بل آخذ من كل عالم وأدع، إلا قول الله وما صح من قول رسول الله ﷺ، آخذه كله وأسأل الله أن يعينني على العمل به، والكوثري كغيره يصيب ويخطيء، ولكني قدرته لعلمه، ولما أحسن إليَّ][(١)].

ويقول عنه ـ أيضًا ـ:

[كان آية في العلم وكان مفردًا في علم الرجال ليس له نظير في عصرنا، ولكنه كان صاحب عصبية للحنفية والعصبية تبعد صاحبها أحيانًا عن جادة الحق][(٢)].

قلت: الذي يظهر أن الشيخ لم يقرأ جيدًا للكوثري، أو أنه

---

(١) ذكريات الطنطاوي (٣/ ٣٤ ـ ٣٥).

(٢) محمد بن عبدالوهاب، ص١٢.

(متميع) مع أهل البدع بسبب إحسانهم إليه وطبعهم لكتبه!

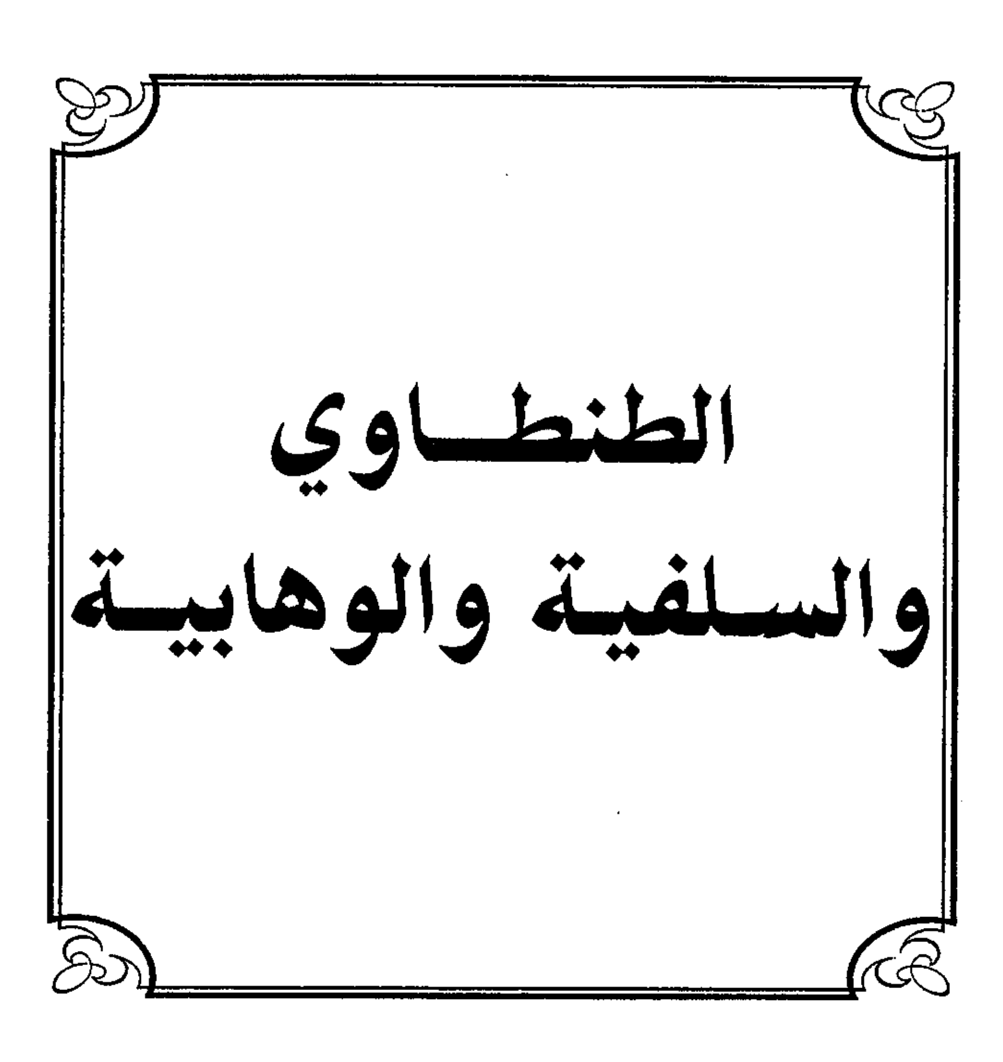
والكوثري كما هو معلوم رأس من رؤوس البدعة في هذا الزمان، فهو أشعري، قبوري، حنفي متعصب، يكره السلفية أشد الكره، ويذم شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم بل يصل في ذلك إلى تكفيرهم! وليت الشيخ على أقل تقدير قد قرأ كتاب شيخه محمد بهجة البيطار: (الكوثري وتعليقاته) لعَلِمَ الكثير عن هذا المبتدع، ولتحَرَّج كثيرًا عن إطلاق (أستاذنا) عليه.

ثناؤه على ابن أبي دؤاد:

ومن ذلك أنه أثنى على شيخ المعتزلة في عصره: أحمد بن أبي دؤاد، فقال عنه بأنه: [من أجلّ رجال الإسلام فضلاً ونُبلاً، وبيانًا وعقلاً][(١)]!! وهو يعلم أن هذا الرجل هو أحد رؤوس الفتنة في عصره، وهو الذي دعا إلى امتحان الإمام أحمد ودعوته إلى عقيدة المعتزلة في القول بخلق القرآن. فما كان للشيخ (السلفي!) أن يُثني عليه، أو يمدحه بما لا يستحق.

---

(١) رجال من التاريخ، ص١٣٤، الطبعة الثامنة. وأفرد له في الكتاب السابق ترجمةً خاصة (ص١٤٧) بعنوان (العالم النبيل)! رغم أن الشيخ ـ في هذه الطبعة ـ قد خفف من غلوه في هذا المبتدع، مقارنةً بالطبعات السابقة.



الطنطاوي والسلفية والوهابية

الطنطاوي والسلفية والوهابية

سبق أن عرفنا في المقدمة أن الشيخ كان صوفيًا ثم انتقل إلى السلفية، كما يقول، فلنستمع إلى أقواله حول موضوع السلفية، والوهابية، مع التعقيب على الأخطاء التي وقع فيها. يقول الشيخ:

[أنا رجل مرَّ بمراحل، فقد كانت نشأتي الأولى على يد مشايخ كلهم صوفي، فكان من ثمرات ذلك أن كرَّهوا إليَّ ابن تيمية مثلاً، وابن عبدالوهاب، ثم سافرت إلى مصر سنة ١٣٤٧هـ لأدرس فيها وأنا ابن عشرين سنة، متفتح القلب للتلقي، فحوَّل خالي محب الدين، ومن عنده من رواد المطبعة السلفية وجهتي وجعلوني أحب ابن تيمية وابن عبدالوهاب بعد أن كنت أكرههما، ثم دنوت حينًا من الشيخ زاهد الكوثري عن طريق صديقنا حسام الدين القدسي، ونشرا لي أول ما أصدرت من مطبوعات وهو (رسائل الإصلاح) التي نُشرت سنة ١٣٤٨هـ، وأقامت الدنيا عليَّ، وردَّ عليها كثير، كان أشدهم الشيخ أحمد الصابوني الحلبي، ثم صحبت الشيخ بهجة البيطار فرجعت إلى ما كنت عليه مع خالي محب الدين الخطيب، وانتهيت الآن بحمد الله إلى طريق الصواب، فلا ألتزم التزامًا كاملاً إلا بما صح عن المعصوم الذي هو الرسول ﷺ، وما جاء في كتاب الله الذي لا يدانيه الباطل، ولا

يقاربه][١].

ويقول ـ أيضًا ـ:

[كان أول اتصالي بالشيخ بهجة سبب أزمة لي في حياتي. فلقد كان أكثر مشايخي، بل أكثر مشايخ الشام، ممن يميلون إلى الصوفية، وينفرون من الوهابية، وهم لا يعرفونها ولا يدرون أنه ليس في الدنيا مذهب اسمه المذهب الوهابي، ولكن ذلك أمر افتراه عليهم خصومها، ينفرون منها كما ينفر الإنسان من عدو خطر مجهول. وكان عندنا ـ كما قلت من قبل ـ جماعة من المشايخ يوصفون أو يوصمون بأنهم من الوهابيين، على رأسهم الشيخ محمد بهجة البيطار وزميله في القراءة على الشيخ جمال القاسمي الأستاذ حامد التقي. ومن أعجب العجب أن والد الشيخ بهجة صوفي من غُلاة الصوفية، القائلين بوحدة الوجود على مذهب ابن عربي وابن سبعين والحلاج. كما أن الشيخ خالد النقشبندي، المفسر السلفي كان جده المدفون في سفح قاسيون هو الذي حمل الطريقة النقشبندية إلى دمشق. ومن تبع أمثال هذه الظاهرة في تاريخ علمائنا وأدبائنا وجد منها الكثير، ولعلَّ من أغربها أن صاحب «الأغاني» أباالفرج الأصفهاني، أموي النسب شيعي المذهب، ومن أبنائي الأستاذ محمد سعيد المولوي، وهو سلفي العقيدة وعمه شيخ المولوية وأبوه من مقدميها.

---

(١) ذكريات الطنطاوي (٨/٢١٨ ـ ٢١٩).

من هنا كان اتصالي بالشيخ بهجة سبب سخط هؤلاء المشايخ عليَّ، حتى أن أحدهم لقيني مرة، فسألني عن حالي، فقلت في نفسي: لماذا لا أُلقي بالحقيقة الثقيلة عارية في وجهه، وما شاء فليفعل؟ فقلت له: أقرأ كتابًا لابن تيمية على الشيخ بهجة، في دار الشيخ ياسين الرواف، أي أنني جمعت له الوهابية من أطرافها، فأخذني إلى مدرسته، وكان مدير مدرسة أهلية فلقينا الشيخ أمين سويد وهو من كبار علماء الشام، وقد جاء به الشيخ محمد علي زينل يدرس في مدارس الفلاح هنا، ثم أخذه يدرس في مدرسة الفلاح في بومباي. وكان الشيخ أمين شيخ أبي فقال له: يا سيدي هذا ابن الشيخ مصطفى، صار وهابيًا ينكر التوسل. فقال الشيخ، رحمة الله عليه: يا بني، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. دعه فلا شيء لك عليه][1].

ويقول الشيخ:

[وجاءتنا مشكلة أخرى، قام جماعة من المشايخ الذين يميلون إلى الصوفية، ومعهم أتباع لهم من الشباب، ينكرون علينا أننا اخترنا سفح قاسيون لصلاة الاستسقاء، بدعوة أن هذا المكان يقيم فيه الوهابية صلاة العيد.

وأنتم لا تدرون ما معنى التهمة بالوهابية في الشام في تلك الأيام؟ كانت الوهابية تهمة خطيرة يثيرون بها العوام، وطالما كتبت

---

(١) رجال من التاريخ، ص٤١٦، ٤١٧.

في «الرسالة» وفي صحف الشام من نحو نصف قرن أقول إنه ليس في الدنيا مذهب اسمه المذهب الوهابي، وإن ما دعا إليه الشيخ محمد بن عبدالوهاب هو الرجوع إلى الكتاب والسُّنَّة، وأنه كان حنبلي المذهب، لم يأتِ بجديد ولم يبتدع بدعة، ولكن المصيبة في إقناع العوام][1].

ويقـــول:

[لما وحَّد الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ الجزيرة، وأنشأت المملكة «معتمدية» في دمشق، كان أول معتمد هو الشيخ ياسين الرواف، وقد قلت لكم، إنه كانت في دمشق أُسر نجدية الأصل تسمى «العقيل»، وكان أبناؤها غالبًا أدلاء للحجاج، عندما يخرج موكب المحمل، والمسنون من أهل مكة والمدينة يعرفون «المحمل المصري» و«المحمل الشامي»، وهما من البدع المحدثة وربما عدت إلى الحديث عنهما.

وكنت أعرف الشيخ ياسين ـ رحمه الله ـ حتى أنه سبب لي لومًا شديدًا من بعض مشايخي، لأني خطبت في حفلة المعتمدية، لماذا؟ لأنها لم تكن قد وضحت الأمور، وتبيَّنت الحقائق وعرف المسلمون ما هي دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، فكان كل من اتصل بالمعتمدية وهابيًا، وكانت تهمة الوهابية شيئًا مخيفًا، حتى أن الأستاذ المودودي ـ رحمه الله ـ حدثني عن رجل هندوسي تاجر

---

(١) ذكريات الطنطاوي (٦/ ٣٤).

كان يعامل المسلمين هناك ويعاملونه، فكان خصام بينه وبين أحد التجار المسلمين. فأعلن في المسجد أن فلانًا (أي الهندوسي) وهابي، فقاطعوه حتى اختلت تجارته، ولم يخلصه إلا أن أرضى التاجر المسلم، فجاء المسجد فأعلن أنه تاب من الوهابية ورجع إلى بوذيته، فرجعوا إلى معاملته، وقد رويت هذه القصة في كتابي (محمد بن عبدالوهاب) المطبوع سنة ١٣٨١هـ][١].

ويقول الشيخ:

[الشيخ محمد حامد - رحمة الله عليه - صديق أحبه، وإن كنت أخالفه في بعض ما يذهب إليه، فهو صوفي وأنا مررت في حياتي بأدوار: قربت من الصوفية لأن مشايخي أكثرهم من أهلها، ولكني لم أقبلها كلها ولم أنخرط فيها. وصرت سلفيًا (أو كما يقولون عندنا في الشام «وهابيًا») **ولكني كنت أقف في أشياء هي عندهم من المسلَّمات وأراها من المشكلات**. وكنت حنفيًا ملتزمًا متعصبًا لمذهبي، لا أقبل ما يخالفه ولو كان حديثاً صحيحًا! وكنت قد أوتيت من صغري جدلاً، فكنت أقول إن مذهبي امتد اثني عشر قرنًا، وانتشر علماؤه بين مشرق الأرض ومغربها، فهل بلغهم هذا الحديث أم لم يبلغهم؟ وإن هو بلغهم فهل خالفوه متعمدين وهم من صفوة علماء المسلمين؟ أم أن لديهم دليلاً آخر يرجعون إليه ويعتمدون عليه؟

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٥٥ - ٥٦).

وأمثال هذه الجدليات التي رأيت أنها قد تسكت المجادل ولكنها لا ترضي العاقل، ولا يقبلها المسلم العالم العامل.
وانتهيت إلى الوقوف عند قول المعصوم حين يبلِّغ آيات الله، وفيما يشرع بما أعطاه الله من وحي آخر، اللفظ فيه من عنده، والحكم من عند الله، وهو الحديث الثابت الصحيح][1].

قلت: فالشيخ في هذه النقول يؤكد أنه سلفي يتبع الكتاب والسنة، والسلفية كما نعلم جميعًا هي اتباع الكتاب و السنة على فهم السلف الصالح، وعلى رأس ذلك مسائل العقيدة، وقد علمنا سابقًا أن الشيخ لم يلتزم بهذا في بعض مسائل العقيدة، كمسألة الصفات مثلاً.

فكيف يدَّعي الشيخ أنه سلفي العقيدة، وهو يخالف منهج السلف في ذلك؟ وما معنى قوله السابق:

[صرت سلفيًا، ولكني كنت أقف في أشياء هي عندهم من المسلَّمات، وأراها من المشكلات]؟

في ظني أن هذه الأشياء التي يراها السلف من المسلَّمات ويراها هو من المشكلات هي مسائل توحيد الأسماء والصفات التي سبق الحديث عنها، والتي لم يستوعب الشيخ فيها عقيدة السلف الصالح فتخبط بين التأويل والتفويض.

---

(١) المصدر السابق (٥/ ١٢٩ ـ ١٣٠).

ولهذا نجد الشيخ لا يتورع عن قوله بأن ابن تيمية مشبِّه! لأنه قرر العقيدة في باب صفات الله كما فهمها السلف الصالح، فظنه الشيخ قد جاء ببدعة جديدة، فقال فيه ما قال دون وَرَع أو فهم صحيح.

يقول الشيخ تحت عنوان (أنا وابن تيمية):

[لقد نشأت في موجة (الحملة على الوهابية)، وكنت أنفر من سماع اسم ابن تيمية (وهو الأستاذ الأكبر لابن عبدالوهاب) ثم سافرت إلى مصر سنة ١٩٢٧ فكنت عندخالي الأستاذ محب الدين الخطيب، فأثر بي هو وجماعة المطبعة السلفية حتى صرت أتعصب لابن تيمية بمقدار ما كنت أتعصب عليه، ثم عرفت الأستاذ الكوثري، ولزمته حينًا في دمشق (وذلك سنة ١٩٣٠) فانقلبت على ابن تيمية مرة أخرى، ثم صحبت الأستاذ الشيخ بهجة فعدت إليه، ثم ذهب ذلك كله مع الشباب الذاهب وفترت عصبيتي له، وعصبيتي عليه، وغدوت أنظر في ترجمته بأعصاب هادئة، وفكر حيادي، فأرى ما له وما عليه، **فما أراه عليه: ميله إلى التشبيه في آيات الصفات، عفوًا، بل التشبيه الذي يُفهم من عباراته وإن لم أجزم بأنه كان مشبهًا أو أراد التشبيه**، ومما أراه عليه: أنه يُشغل الناس أحيانًا بأمور لا تستحق هذا الاهتمام كله، كمسألة الزيارة، وأنا أقرأ حديث «**لا تُشد الرحال...**» فلا أفهم منه المنع من السفر للزيارة، إنما أفهم منه المنع من الرحلة للصلاة فقط في غير هذه المساجد، لأن لها وحدها ميزة، وباقي المساجد سواء، ولا يفهم

منه المنع من شد الرحال إطلاقًا إلا للصلاة في هذه المساجد، بدليل جواز السفر وشد الرحال للتجارة والسياحة في الأرض ولطلب العلم ولكل قصد غير محرم. فكيف يجوز أن أسافر إلى المدينة لرؤية آثارها ولا أُسافر لزيارة الرسول ﷺ؟ وكيف يجوز لي أن أُسافر لأزور قبر صديق في دوما مثلاً أو في حمص وأُسافر لزيارة كل قبر مادامت زيارة الأموات مشروعة إلاَّ قبر الرسول ﷺ؟

هذا غلو وتزيّد.

هذا مع الإقرار بأن ابن تيمية أحد العشرة الكبار في تاريخنا العلمي][1].

قلت: قد علمنا أن التشبيه الذي يظنه الشيخ واقعًا في أقوال شيخ الإسلام هو مذهب السلف الصالح، وهو إثبات صفات الله الواردة في الكتاب والسُّنَّة، ومعرفة معانيها، مع تنزيه الله عن مشابهة خلقه، ولكن الشيخ لم يستوعب هذا، فظنه تشبيهًا، وظن مذهب السلف هو التفويض، ولا لوم على شيخ الإسلام أن نصر مذهب السلف الصالح ولو لم يفهمه (البشر).

وظهر لنا ـ أيضًا ـ من كلام الشيخ السابق أنه يُجَوِّز شد الرحال لزيارة قبر النبي ﷺ، ولغيره من قبور الصالحين، وهذا مخالف لقوله ﷺ: «**لا تُشد الرحال إلاَّ لثلاثة مساجد: مسجدي**

---

(١) محمد بن عبدالوهاب، ص١٢، ١٣.

هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى»[١].

وقد أشبع العلماء هذه المسألة، وبيَّنوا الحق فيها[٢]، وقرروا أن زيارة القبور مشروعة للأدلة الصحيحة الواردة في الحث عليها، ولكن الممنوع هو شد الرحل إليها، للحديث السابق. ولأحاديث أخرى وآثار صحيحة عن الصحابة تؤكد هذا المنع.

ومَنْ قَصَدَ السفر إلى المدينة النبوية فعليه ـ كما قال شيخ الإسلام ـ [أن يقصد السفر إلى المسجد والصلاة فيه][٣] لا أن يقصد زيارة قبره ﷺ، للنهي عن ذلك كما سبق، فإذا وصل المدينة فلا حرج عليه أن يأتي قبره ﷺ ويُسلِّم عليه السلام الشرعي دون بدع أو منكرات، وهذا خاص بالرجال دون النساء، فإنهن ممنوعات من زيارة القبور، ومن ضمنها قبره ﷺ.

وأما قياس الشيخ زيارة قبره ﷺ على جواز السفر وشد الرحل للتجارة أو طلب العلم أو زيارة الإخوان والأقارب، فهو قياس مع الفارق، لأن هذه الأمور مباحة، وقد أمر الشرع بها وحث عليها، بخلاف زيارة القبور أو غيرها مما قد يقصد به

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٧٢) ومسلم (٤١٥).

(٢) وليس هذا مقام بسطها، فمن أراد الزيادة ومعرفة الحق فيها بتفصيلاته، فعليه بكتاب «الرد على الأخنائي» لشيخ الإسلام ابن تيمية، و«الجواب الباهر» له أيضًا، وكذا كتاب «الصارم المنكي» لابن عبدالهادي ، فهي المرجع في هذه المسألة.

(٣) الرد على الأخنائي، ص١٨.

الإنسان القُربة والبركة، فإن هذا مما نهي عنه نهيًا قاطعًا سدًا لذريعة الشرك والغلو، ولم يُستثن من ذلك إلا شد الرحل للمساجد الثلاثة لما في الصلاة فيها من مضاعفة الأجر كما جاء ذلك في الأحاديث الصحيحة.

إذن فالقبور يزورها الرجال الزيارة الشرعية، لتذكرهم الآخرة، ويعتبروا بها، ويدعوا لأصحابها بالمغفرة والرحمة، دون شد رحل إليها.

عودة إلى حديثه عن السلفية:

ويقول الشيخ عن إحدى خطبه التي خطبها:

[إن الخطبة كانت علمية، موضوعها التوحيد والسلفية، وكان كل ما قلته مما يتعلق بالشاميين هو أنهم كانوا يَنْفُرون من السلفية، ثم لمَّا عَرَفوا أنها اتِّباع الكتاب والسُّنَّة اطمأنوا إليها، وأَنِسُوا بها][1].

ويقول مادحًا الشيخ محمد بن عبدالوهاب:

[وأكثر أهل الزبير من نجد، وهم سلفيون، حملوا إليها هذه السلفية التي دعا فيها الشيخ محمد بن عبدالوهاب، **مجدد الإسلام في القرن الثاني عشر بلا نزاع**، إلى العودة إلى التوحيد الخالص][2].

---

(١) من نفحات الحرم، ص٧٣.

(٢) ذكريات الطنطاوي (٤/ ٤٥).

وقد خصَّص الشيخ كتابين من كتبه لدراسة دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب أثنى عليه فيها في مواضع، وانتقده في مواضع أخرى! فلنستمع إلى انتقاداته:

يقول الشيخ عن رسالته:

[سيرى القاريء، بعد أن يقرأ في هذه الرسالة سيرة محمد بن عبدالوهاب ويعرف ما دعا إليه، أن الرجل لم يأتِ ببدعة ولا أحدث في الإسلام حدثًا، ولم يدع إلاَّ إلى التوحيد الصحيح وإلى الإسلام الحق، فالدعوة ذاتها لا غبار عليها، وليس فيها ما يُعاب، **إنما يعاب الأسلوب الذي اتبعه فيها**، ذلك أنه رأى ما يصنع بعض الناس عند القبور من مظاهر الشرك، فاعتبرهم مشركين، ثم عمم الحكم على كل بلد فيه هذه القِباب، وهذه القبور، أي أنه حكم بردة المسلمين جميعًا، واستحلال دمائهم وأموالهم، بل لقد استحل ذلك فعلاً. ومن قرأ ما كتب في ترجمته، ولاسيما كتاب (عنوان المجد في تاريخ نجد) لابن بشر وهو المنبع الذي أخذ منه كل من كتب في ترجمة الشيخ، من قرأ هذا الكتاب وجد في كل صفحة منه أنهم يشبهون هذه الدعوة بالإسلام أول ما ظهر، وصاحبها بالرسول، وجماعته بالمسلمين، ومن عداهم بالمشركين الأولين، ويستعملون ألفاظ السيرة ذاتها: الهجرة والمهاجرين، والأنصار، والغزوة، والسرية وأمثالها.

مع أن الشيخ كان يقول دائمًا أنه حنبلي، والحكم في المذهب الحنبلي أن المسلم إذا ارتد يستتاب، ويعرض عليه

الرجوع ثلاثًا، فإن لم يعد وكان عاقلاً بالغًا يقتل، وإن قال أنا مسلم أو تشهد، أخذ بظاهر حاله وترك.

هذا هو الحكم في المذهب الحنبلي.

فهل دعا الشيخ كل واحد من القوم الذين حاربهم واستتابه من عبادة القبور (إن صح أنه كان يعبدها) وأمهله؟ ولِمَ لَمْ يأخذ بظاهر أحوالهم وكلهم يقول: أنا مسلم، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؟][١].

قلت: لقد بهت الطنطاوي الشيخ محمد بن عبدالوهاب بأنه يكفر المسلمين دون تورع أو احتياط، وهذه التهمة قد رددها خصوم الشيخ سابقًا، فلعلَّ الطنطاوي قد أخذها منهم، لاسيما أثناء اتصاله بعدو هذه الدعوة (الكوثري).

والحق الذي يجب أن يعلمه الشيخ أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب لم يكفر إلا من كفره الله ورسوله، وهذه نصوص أقواله تشهد بذلك[٢].

فقد بعث الشيخ -رحمه الله- رسالة إلى أهل الرياض ومنفوحة، ينفي تلك الفرية، ويقول:

[وقولكم إننا نكفر المسلمين، كيف تفعلون كذا، كيف

---

(١) محمد بن عبدالوهاب، ص٩، ١٠.

(٢) ناقلاً إياها من كتاب «دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب» للشيخ عبدالعزيز العبداللطيف.

تفعلـون كـذا. فـإنّـا لـم نكفّـر المسلميـن، بـل مـا كفـرنـا إلاّ المشركين][1].

ويبعث رسالة لمحمد بن عيد أحد مطاوعة ثرمداء، يقول فيها:

[وأما ما ذكره الأعداء عني أني أكفر بالظن، وبالموالاة، أو أكفر الجاهل الذي لم تقم عليه الحجة، فهذا بهتان عظيم، يريدون به تنفير الناس عن دين الله ورسوله][2].

وفي رسالته لأهل القصيم، يشير ـ رحمه الله ـ إلى مفتريات الخصم العنيد ابن سحيم، ويبريء نفسه من فرية تكفير المسلمين وقتلهم، يقول الشيخ الإمام:

[واللهُ يعلم أن الرجل افترى عليَّ أمورًا لم أقلها، ولم يأت أكثرها على بالي، فمنها قوله: أني أقول أن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء، وأني أكفر من توسل بالصالحين، وأني أكفر البوصيري، واني أكفر من حلف بغير الله.. جوابي عن هذه المسائل أن أقول سبحانك هذا بهتان عظيم][3].

ويؤكد الشيخ محمد بن عبدالوهاب بطلان تلك الفرية، ويدحضها فيقول ـ في رسالته لحمد التويجري ـ:

---

(١) مجموعة مؤلفات الشيخ (٥/ ١٨٩).

(٢) المصدر السابق (٥/ ٢٥).

(٣) المصدر السابق (٥/ ١١ ـ ١٢).

[وكذلك تمويهه على الطغام بأن ابن عبدالوهاب يقول: الذي ما يدخل تحت طاعتي كافر، ونقول: سبحانك هذا بهتان عظيم، بل نُشهد الله على ما يعلمه من قلوبنا بأن من عمل بالتوحيد، وتبرأ من الشرك وأهله، فهو المسلم في أي زمان وأي مكان، وإنما نكفر من أشرك بالله في إلهيته بعدما تبين له الحُجة على بطلان الشرك...][1].

ويؤكد الشيخ الإمام ـ مرة أخرى ـ على بطلان تلك الدعوى، وأنها دعوى كذب وبهتان، فيقول جوابًا على سؤال الشريف[2]:

[وأما الكذب والبهتان، فمثل قولهم: أنا نكفر بالعموم، ونوجب الهجرة إلينا على من قدر على إظهار دينه، وأنا نكفر من لم يكفر ومن لم يقاتل، ومثل هذا وأضعاف أضعافه، فكل هذا من الكذب والبهتان الذي يصدون به الناس عن دين الله ورسوله...][3].

ويبعث الشيخ رسالة لأحد علماء المدينة لدحض فرية تكفير الناس عمومًا، يقول الشيخ:

[فإن قال قائلهم أنهم يكفرون بالعموم فنقول: سبحانك هذا بهتان عظيم، الذي نكفر الذي يشهد أن التوحيد دين الله ودين

---

(١) المصدر السابق (٥/ ٦٠).
(٢) لم يذكر اسم هذا الشريف.
(٣) المصدر السابق (٣/ ١١).

رسـولـه، وأن دعـوة غيـر الله بـاطلـة ثـم بعـد هـذا يكفـر أهـل التوحيد][1].

ويكتب الشيخ الإمام إلى إسماعيل الجراعي صاحب اليمن تكذيبًا لهذه الفرية، قال الشيخ:

[وأما القول بأنَّا نكفر بالعموم فذلك من بهتان الأعداء الذين يصدون به عن هذا الدين، ونقول سبحانك هذا بهتان عظيم][2].

ولما أرسل أحد علماء العراق وهو الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله السويدي كتابًا للشيخ الإمام يسأله عما يقوله الناس فيه... من تكفير الناس إلا من تبعه...، فأجابه الشيخ بجواب ذكر فيه كيد الأعداء ثم أعقبه برد فرية الخصوم:

[وأجلبوا علينا بخيل الشيطان، ورَجله، منها: إشاعة البهتان بما يستحي العاقل أن يحكيه، فضلاً عن أن يفتريه، ومنها ما ذكرتم أني أكفر جميع الناس إلا من تبعني، وأزعم أن أنكحتهم غير صحيحة، ويا عجبًا كيف يدخل هذا في عقل عاقل، هل يقول هذا مسلم أو كافر أو عارف أو مجنون..][3].

قلت: هذه بعض أقوال الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب لدفع هذه الفرية التي أطلقها خصومه في زمنه، وصدقها بعض

---

(١) المصدر السابق (٥/ ٤٨).
(٢) المصدر السابق (٥/ ١٠٠).
(٣) المصدر السابق (٥/ ٢٦).

المسلمين، كالشيخ الطنطاوي ـ عفا الله عنه ـ.

وسطية الطنطاوي:

بسبب مواقف الشيخ السابقة من ابن تيمية ومن محمد بن عبدالوهاب نجده كثيرًا ما يوحي لقرائه بأنه يقف الموقف الوسط الذي لا يميل للسلفية ولا يميل لخصومها، وذلك بسبب سوء فهمه للسلفية، وبسبب نشأته الأولى على كتب المبتدعة من الصوفية وغيرهم.

يقول الشيخ عن كتابه (محمد بن عبدالوهاب):

[ولقد كتبت هذه الرسالة، لتكون ـ إن شاء الله ـ وسيلة إلى السلام والوئام، لا زيادة في الجدال والخصام وفيها ما يوافق من يسمون بالوهابية، وفيها ما يوافق المنكرين عليهم، وما أردت هذا ولا ذاك، ولكن قلت ما أراني الله أنه الحق، فوافق هؤلاء مرة وأولئك مرة، لتعلم كل جماعة أن الحق لم يكن وقفًا عليها، وأن الميزان هو الكتاب والسُّنَّة، فما وافق قبلناه، أيًّا كان القائل به، وما خالف رددناه، لا نُقر باطل موالٍ لولائه، ولا نأبىٰ حق مخالف لخِلافِهِ][(١)].

ويقـول:

[مرَّ بكم إني على ضعفي وعجزي حاولت لما عدت من العراق (١٩٣٩) جمع المشايخ والعاملين في حقل الدعوة الإسلامية

---

(١) محمد بن عبدالوهاب، ص٤٠.

فما أفلحت، وكنت كلما زار دمشق الشيخ أمجد الزهاوي مع الشيخ محمد محمود الصواف جمعت لهم بطلب منهم كل العاملين للإسلام من أقصى الصوفية إلى أقصى السلفية **لأن صلتي بحمد الله بهم جميعًا صلة طيبة، أمشي معهم من مراحل الطريق ما يوافق طريقي، ثم أسلك طريقي وأدعهم يسلكون طريقهم**، ثم إنني لا أُنازع شيخًا على مشيخته، ولا رئيسًا على رياسته، ولو عرضت عليَّ لرفضتها وامتنعت عن قبولها، بل لقد عرضت فعلاً وصنعت هذا الذي قلت][(١)].

قلت: بهذا يتبين أن الشيخ لم يقبل السلفية بجميع معانيها، وإنما اكتفى منها بما يوافق طريقه، ورفض منها ما يخالف طريقه، وقد علمنا سابقًا ما قُبِلَ وما رُفِضَ، وهذا دليل عدم اقتناعه (الاقتناع الكامل) بمذهب السلف، فلذلك بقي حيران.

---

(١) ذكريات الطنطاوي (٧/ ١٥٥).



فتــاوى الطنطــاوي

فتـــاوى الطنطـــاوي

تميَّز الشيخ عند كثير من الناس بتساهله في الفتوى، ومبالغته في الأخذ بالتيسير على المسلمين حتى يخرج بهم إلى شيء من المكروهات أو المحرَّمات! ولعلَّ نشأته التي اتصفت بالتساهل في مظهره وفي قراءته قد أدته إلى هذا آخر عمره.

والواجب على المسلم أن يدور مع الكتاب والسنة أينما دارا، لا أن يُديرهما وفق نشأته، أو بيئته، أو طبيعته.

وقد علمنا ـ سابقًا ـ أن الشيخ يعترف بأنه أديب وليس مفتيًا، وأن كتب الأدب والشعر قد استحوذت على مقدار كبير من قراءته، فكان الأولى بالشيخ أن لا يتجشم الفتوى قبل أن يكون على أتم الاستعداد لها، لكي لا يقع في أخطاء تُنسب إليه ويضل بها جمهور كبير من الأمة، قال تعالى محذرًا من ذلك: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[1].

وقد أحببت هنا عرض الفتاوى والآراء الفقهية الخاطئة التي تبناها الشيخ وقال بها مع تعقب ذلك باختصار، لأنها جميعًا مما اشتهر بين العامة والخاصة، فعلموا حكم الله وحكم رسوله ﷺ فيها، فمنهم من هدى الله، ومنهم من اتبع هواه فيها متعذرًا بقول

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

فلان من العلماء.

١ ـ من هذه الفتاوى، قوله في حجاب المرأة المسلمة بأن لا حرج من كشف الوجه واليدين لغير المحارم(١).

وهذا مخالف لحكم الله وحكم رسوله ﷺ: الذي قد عُلم واشتهر(٢).

ومع تبني الشيخ لهذا القول الخاطيء، إلاَّ أنه يلزمنا أن نعترف بأن الشيخ يحبذ ستر المرأة لوجهها، وأنه الأفضل، يقول الشيخ:

[التي تستر وجهها لا أقول لها ولا يقول لها مسلم بأن تكشفه، لأن الستر هو الأفضل وهو الأكمل](٣).

ويرى أن: [كشف الوجه إن جرَّ إلى فتنة بالمرأة، أو عليها، فقد وجب عليها ستره](٤).

وكذلك يذم الشيخ الاختلاط بين الرجال والنساء، ولا يُصوبه، بل يحمل عليه حملات عنيفة، من ذلك قوله:

[باسم الرياضة تارة وباسم الفن تارة، وباسم الدفاع المدني

---

(١) فتاوى الطنطاوي، ص١٥٣.
(٢) ولمعرفة الأدلة انظر كتاب «عودة الحجاب» للشيخ محمد بن إسماعيل، القسم الثالث.
(٣) فتاوى الطنطاوي، ص١٥٣.
(٤) ذكريات الطنطاوي (٧/ ٢١).

تارة، وأسماء أخرى ما أنزل الله بها من سلطان استبحنا ما حرَّم الله، وعممنا الاختلاط في المدارس والجامعات، بدأنا بذلك من رياض الأطفال، وقلنا صغار ما لهم عورة ولا يعرفون المعاني الجنسية، ونسينا أن الصغير يكبر، وأن ما غُرس في ذاكرته يبقى فيها.

نُقلِّد في ذلك غير المسلمين، ولقد قرأت في جرائد اليوم (الجمعة العاشر من رمضان) أن الانجليز وغيرهم من الأمم التي ندعوها أمم الحضارة، بدأت تعدل عن سنة إبليس في خلط البنين في المدارس بالبنات، وتعود إلى الفطرة التي فطر الله البشر عليها، فتجعل للذكور مدارس ما فيها إناث، ومدارس للإناث ما فيها ذكور، وقد سبقت إلى ذلك روسيا أم الشيوعية وبنت الصهيونية، ونحن لا نزال سائرين في غيِّنا، بل لقد بلغ منا التقليد أن أقمنا مدرسين شبانًا يدرسون البنات البالغات، ومدرسات شابات للطلاب البالغين. مما حمى الله هذه المملكة منه ومن أمثاله وأسأله أن يديم حمايتها منه وإبعادها عنه][1].

ويقول الشيخ:

[أما الممرضات فلا يجوز اختلاطهن بالرجال، والكشف على عوراتهم إلاَّ عند الضرورة أو الحاجة الشديدة التي لها هنا حكم الضرورة][2].

---

(١) ذكريات الطنطاوي (٨/ ٢٧٥).

(٢) رجال من التاريخ، ص٢٧٠.

ويقـــول:

[يا ليت القائمين على المستشفيات يضعون في أقسام الرجال ممرضين بدلاً من ممرضات][(١)].

٢ ـ ويرى الشيخ أن التصفيق حلال[(٢)].

وهذا خطأ، والصواب أن [التصفيق في الحفلات من أعمال الجاهلية وأقل ما يُقال فيه الكراهة والأظهر في الدليل تحريمه لأن المسلمين منهيُّون عن التشبه بالكفرة، وقد قال الله ـ سبحانه ـ في وصف الكفار من أهل مكة: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾[(٣)]، قال العلماء: المكاء الصفير، والتصدية التصفيق؛ والسُّنَّة للمؤمن إذا رأى أو سمع ما يعجبه أو ما ينكره أن يقول: سبحان الله، أو يقول: الله أكبر، كما صحَّ ذلك عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة ويُشرع التصفيق للنساء خاصة إذا نابهن شيء في الصلاة وكُنَّ مع الرجال فسها الإمام في الصلاة فإنهن يشرع لهن التنبيه بالتصفيق، أما الرجال فينبهونه بالتسبيح كما صحَّت بذلك السُّنَّة عن النبي ﷺ وبهذا يُعلم أن التصفيق من الرجال فيه تشبه بالكفرة والنساء وكلاهما منهيٌّ عنه. والله ولي التوفيق][(٤)].

---

(١) ذكريات الطنطاوي (٤/ ٦٩).

(٢) فتاوى الطنطاوي، ص٣١٣.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٥.

(٤) الفتاوى للشيخ ابن باز (١/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨) إصدار مجلة الدعوة.

٣ ـ ويرى الشيخ جواز الغناء وعدم حُرمته[١].

وهذا خطأ عظيم تتابع عليه بعض العلماء في هذا الزمان متأثرين بواقعهم الغارق في مختلف أنواع الغناء، فجرَّؤا بفتاواهم تلك شباب الأمة على اقتحام هذه المعصية متذرعين بأقوالهم أمام من يُنكر عليهم.

والصواب في هذه المسألة حُرمة الغناء، وقد كتب فيها وبيَّنها كثير من العلماء وطُلاب العلم في رسائل عديدة.

ولو لم يكن في هذه المسألة إلا الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه لكفى، وهو قوله ﷺ «**ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرَ**[٢] **والحرير والخمر والمعازف**».

قلت: وانظر لبيان ما ورد في هذه المسألة من أحاديث صحيحة، وأقوالٍ للسلف، رسالة الشيخ ناصر الدين الألباني «تحريم آلات الطرب».

٤ ـ ويرى الشيخ جواز إقامة أعياد الميلاد، وعيد الأم!! ويقول عن ذلك: [ما أرى فيه بأسًا][٣]!.

وهذا من الأخطاء الجسيمة التي وقع فيها الشيخ، لأنه من المعلوم أنه: [قد دلَّت الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن

---

(١) فتاوى الطنطاوي، ص١٠٦.
(٢) الحِرَ أي الزنا.
(٣) فتاوى الطنطاوي، ص٣٠٨.

الاحتفال بالموالد من البدع المحدثة في الدين ولا أصل لها في الشرع المطهَّر، ولا تجوز إجابة الدعوة إليها، لما في ذلك من تأييد للبدع والتشجيع عليها، وقد قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾[1]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾[2]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾[3].

وصحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**» أخرجه مسلم في صحيحه، وقال ﷺ: «**خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة**». والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

ثم إن هذه الاحتفالات مع كونها بدعة منكرة لا أصل لها في الشرع هي مع ذلك فيها تشبُّه باليهود والنصارى لاحتفالهم بالموالد، وقد قال ﷺ محذرًا من سننهم وطريقتهم: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**» قالوا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن**». أخرجاه في الصحيحين. ومعنى قوله: «**فمن**» أي هم المعنيون بهذا

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢١.
(٢) سورة الجاثية، الآيتان: ١٨، ١٩.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣.

الكلام. وقال ﷺ: «**من تشبه بقوم فهو منهم**» والأحاديث في هذا المعنى معلومة كثيرة. وفّق الله الجميع لما يرضيه][1].

٥ ـ ويرى الشيخ أن جدة ميقاتِ للحجاج[2].

وهذا مخالف للقول الصحيح المشهور بين العلماء.

قال الشيخ ابن باز ـ حفظه الله ـ في فتوى له حول هذا الموضوع:

[جدة ميقات لأهلها الساكنين فيها والمقيمين فيها، لقول النبي ﷺ لمّا وقّت المواقيت: «**هن لهن ولمن أتى عليهن من غير أهلهن ممن أراد الحج أو العمرة. ومن كان دون ذلك فمهلّه من حيث أنشأ حتى أهل مكة يهلون من مكة**»، ومعلوم أن جدة دون المواقيت فتكون داخلة في قوله ﷺ: «**ومن كان دون ذلك فمهله من حيث أنشأ**»، وليس للوافدين خارج المواقيت أن يتجاوزوها إلى جدة أو غيرها، بل عليهم أن يحرِموا منها[3] إن مرّوا عليها أو مما يحاذيها جوًّا أو برًّا لعموم الحديث المذكور إذا كانوا أرادوا الحج أو العمرة. والله ولي التوفيق][4].

٦ ـ ويرى الشيخ أن النمص بالنسبة للنساء مكروه وليس بمحرَّم،

---

(١) الفتاوى للشيخ ابن باز (٢/ ٣٧ ـ ٣٨) إصدار مجلة الدعوة.

(٢) فتاوى الطنطاوي، ص٢٤١.

(٣) أي من المواقيت.

(٤) مجموع فتاوى الشيخ ابن باز (٥/ ١/ ٧٤) دار الوطن.

إلا إذا قصدت مشابهة الكافرات(١).

وهذا مخالف لحديث رسول الله ﷺ في لعن «**النامصات والمتنمصـــات**»(٢) واللعـن لا يكـون إلاَّ علـى ارتكـاب محـرَّم، والحديث أطلق ذلك ولـم يقيده بمشابهة الكافرات أو عدمها.

٧ ـ ويرى الشيخ جواز إعطاء القيمة في زكاة الفطر بدلاً من صاع الطعام(٣).

وهذا مخالف لقوله ﷺ وفعله.

قال الشيخ ابن عثيمين ـ حفظه الله ـ:

[زكاة الفطر لا تجوز إلاَّ من الطعام، ولا يجوز إخراجها من القيمة، لأن النبي ﷺ فرضها صاعًا من تمر أو صاعًا من شعير وقال أبوسعيد: «**كُنَّا نُخْرِجُهَا عَلى عَهْد النَّبِيِّ ﷺ صَاعًا مِنْ طَعَامٍ**».

فلا يحل لأحدٍ أن يُخرج زكاة الفطر من الدراهم أو الملابس أو الفرش بل الواجب إخراجها بما فرضه الله على لسان محمد ﷺ، ولا عبرة باستحسان من استحسن ذلك من الناس، لأن الشرع ليس تابعًا للآراء، بل هو من لدن حكيم خبير، الله ـ عز وجل ـ أعلم وأحكم، وإذا كانت مفروضة بلسان محمد ﷺ صاعًا من طعام فلا يجوز أن تتعدى ذلك مهما استحسنَّاه بعقولنا، بل الواجب على

---

(١) فتاوى الطنطاوي، ص١٦٨.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٢٥).

(٣) فتاوى الطنطاوي، ص٢٦١.

الإنسان إذا استحسن شيئًا مخالفًا للشرع أن يتهم عقله ورأيه] (١).

قلت: هذه أبرز الفتاوى التي خالف فيها الشيخ القول الصحيح في المسألة، متبنيًا الرأي الذي يراه هو الأسهل للمسلمين ولو خالف النص الصحيح أو إجماع العلماء، متأثرًا بضغط واقعه، وطبيعة بيئته ونشأته.

ولهذا.. فالشيخ ممن لا يُعتد بهم في الفتوى، لعدم أهليته لذلك ـ كما علمنا ـ ولكثرة أخطائه العلمية التي قرأنا بعضها. والله المستعان.

* * *

(١) فتاوى ابن عثيمين (١/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥) إعداد أشرف عبدالمقصود.

خاتمـــة

بعد هذه الجولة السريعة ـ أخي القارئ ـ على أبرز المواضِع التـي تطـرَّق لهـا الشيـخ الطنطـاوي؛ نستطيـع أن نُجمـل أبـرز الملاحظات عليه في الآتي:

١ ـ أنه أخطأ في اعتقاده أن مذهب السلف في صفات الله هو (التفويض)، ثم تبنيه لهذا المذهب الباطل.

٢ ـ أنه أخطأ بتأويل كثير من صفات الله.

٣ ـ أنه دعا إلى تعظيم الآثار، والاهتمام بها.

٤ ـ أنه أثنى على بعض رموز المبتدعة، كالكوثري.

٥ ـ أنه جهل حقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، فتابع خصومها في اتهامها بأنها تكفر المسلمين.

٦ ـ أنه اتهم شيخ الإسلام ابن تيمية بميله إلى التشبيه والتجسيم!

٧ ـ أنه جوَّز شد الرحل لزيارة قبر النبي ﷺ، وقبور الصالحين.

٨ ـ أنه قليل الاهتمام بحديث النبي ﷺ، كما سبق بيانه عند الحديث عن كتابه: «تعريف عام بدين الإسلام».

٩ ـ أنه متساهل في الفتوى، حيث جوَّز الغناء، والاحتفال بأعياد الميلاد، وكشف وجه المرأة ويديها لغير المحارم... إلى غير ذلك من الفتاوى الباطلة.

الفهرس

* * *